المماليك الصهاينة والمصير العربي

عبد الرحمن شاكر

اهداءات ٢٠٠٢
السيدة/ نصي حقي
القاهرة

المماليك الصهاينة
والمصير العربي

عبد الرحمن شاكر



مقدمة

تقوم « النظرية الصهيونية » التى تم بموجبها الاستيلاء على فلسطين ، على أساس ادعاء أن يهود العالم يشكلون أمة واحدة ، هم بنو إسرائيل ، الذين تقوض ملكهم فى فلسطين منذ أكثر من ألفى عام ، حيث قامت دولتهم الأولى ، والوحيدة هناك ، بناء على الوعد الربانى لإبراهيم عليه السلام ، بأن يعطى نسله أرض كنعان . ثم أمره موسى عليه السلام ، بالخروج بقومه. بنى إسرائيل من مصر إلى فلسطين ، حيث بنوا الهيكل وأقاموا ملك داوود وسليمان .

ذلك هو مجمل القصة التاريخية التى ترويها الكتب المقدسة ، فهل كان ملك إسرائيل فى فلسطين ، هو الدولة اليهودية الوحيدة فى التاريخ ، وهل كل اليهود فى العالم الآن هم أبناء إسرائيل الذين تشتتوا – طبقا لدعواهم – فى أنحاء الأرض ؟ الحقيقة غير ذلك بالمرة .

فبعد زوال ملك إسرائيل فى فلسطين بزمان ، بل بعد ظهور المسيحية ، ثم الإسلام ، قامت دولة يهودية « كبرى » ، بمقاييس ذلك العصر على الأقل ، فى المنطقة الواقعة ما بين بحر قزوين والبحر الأسود ، المعروفة حاليا باسم القوقاز ، حيث كان يسكنها شعب

الخزر الذى اعتنق ملوكه اليهودية وتبعه معظم أبناء شعبهم ، واستمر ملك هذه الدولة أكثر من قرنين من الزمان ، أطول بكثير من ملك إسرائيل القديم فى فلسطين ، ثم سقطت تلك الدولة بقيام دول أخرى للتتار ، وللروس الصقالبة ، وأخيرا للبلاشفة الذين أقاموا الاتحاد السوفييتى ، إحدى القوتين العظميين فى العالم الآن .

المشكلة اليهودية التى عرفتها أوربا فى عصرنا الحاضر ، نشأت بسقوط تلك الدولة منذ ثمانية أو تسعة قرون على الأكثر والصهيونية المعاصرة إنما قامت على أكتاف بقايا دولة الخزر فى تلك الأصقاع ، والدعوة إليها نشأت هناك ، وقد سبق لى أن عالجت هذا الموضوع فى سلسلة مقالات لجريدة « السياسى » الأسبوعية التى تصدر فى القاهرة ، جمعتها فى كتيب صغير ، صدر فى بيروت بعنوان « دولة الخزر الجديدة أو إسرائيل » ولكن ذلك العمل الأول فى هذا الموضوع كان قاصرا من ناحيتين :

أولا : تحقيق أصل كلمة اليهود الأشكنازيم ومدلولها التاريخى .

ثانيا : الإشارة إلى مشروع توطين اليهود السوفييت فى جمهورية خاصة بهم فى الاتحاد السوفييتى تحمل اسم بيروبدجان .

وعليه فقد شرعت فى إنشاء عدد آخر من المقالات حول الموضوع ذاته ، نشرت فى مجلة الحوادث اللبنانية التى تصدر فى لندن ومجلة الهلال ، وجريدة المساء ، اللتين تصدران فى القاهرة ، وبعض تلك المقالات كانت له ملابسات معينة من الأحداث السياسية المعاصرة بما فيها الغزو الإسرائيلى للبنان ، واستمرار الصهيونية فى احتلال الأرض العربية فى فلسطين ، وجلب مزيد من المستوطنيين الخزر إليها .

المقالات المذكورة هى التى تشكل مادة هذا الكتاب .

وقد اخترت اسم « المماليك الصهاينة » عنوانا له ، وذلك لتقريب الصورة إلى ذهن القارىء العربى ، والمصرى على وجه أخص ، حيث عرفت مصر ، والعالم العربى ، عددا من الدول التى أقامها المماليك فى بلادنا وهم من كانوا يأتون من ذات المنطقة التى يأتى منها الصهاينة المعاصرون ، ومن ذات جنس الخزر ، الذين هم أصل الترك ، أو الترك فرع منهم على الأرجح . والفرق بين المماليك القدماء أو الخزر الذين أقاموا دولا فى المنطقة العربية مثل السلاجقة ودول المماليك فى مصر ، وبين « المماليك الخزر » المعاصرين ، أن الأولين قد اعتنقوا الإسلام واندمجوا فى الشعوب العربية التى تسكن المنطقة ،

أما المعاصرين فقد جاءوا « بيهوديتهم » ، يحاولون السيطرة على المنطقة بدعوى إعادة ملك إسرائيل ! وأداتهم فى بسط تلك السيطرة هو محاولة تمزيق الدول العربية أو بعضها إلى دويلات طائفية خاضعة لهم .

وقد أشرت فى بعض المقالات التى يضمها هذا الكتاب إلى السيطرة الدولية « للمماليك الصهاينة » أو الخزر الأشكنازيم ، بحكم انتشارهم العالمى ، ووجودهم البشرى ، ونفوذهم الكبير ، فى عديد من دول العالم ، وخاصة فى القوتين العظميين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية ، وتطلعهم عبر هذا الوجود ، إلى تشكيل أرستقراطية عالمية يكونون هم عمادها . وفى هذا الصدد حرصت على بيان زيف دعاويهم جميعا ، ليس فى قضية الأصل التاريخى وحده ، بل فى التيارات السياسية المعاصرة ، سواء منها الديموقراطية أو الاشتراكية ، حيث بينت خيانتهم لقضية الثورة الاشتراكية فى بلادهم ، من أجل أطماعهم الصهيونية ، وأن من بقى منهم فى الدول الاشتراكية كانوا عاملين على إفسادها من الداخل ، وأنهم كانوا من وراء ظواهر الطبقة الجديدة ، التى تعتبر المأخذ الأكبر على تلك المجتمعات ، ووراء مظاهر الاستبداد التى تصادم آمال شعوبها .

وجزء من تلك المادة لم تزودنى به الكتب وحدها ، بل زيارتى لكل من الاتحاد السوفييتى وبولندا فى الشرق ، وبريطانيا العظمى فى الغرب ، حيث أعاننى الاحتكاك المباشر ، على تبين صورة « الطبقة العالمية » التى يشكلها الخزر أو يسعون إلى تشكيلها ، لذلك ضمنت هذا الكتاب – فى آخره ، عددا من المقالات قد تبدو فى ظاهرها ، وإذا ما أخذت منفردة ، غير وثيقة الصلة بموضوعه ، ولكن صلتها بالموضوع تتضح عند قراءتها مع بقية المقالات .

ولقد أشرت إلى المصير العربى فى عنوان الكتاب ، وذلك بعض مادته ، حيث أن دروس التاريخ قد علمتنا أن مصير كل كيان دخيل على المنطقة العربية هو الذوبان فى محيطها الكبير . غير أن ذلك لن يتحقق بالتمنى ، وإنما بالنضال اليقظ من جانب أبناء الأمة العربية ، ودفاعهم المستميت عن كيانها ضد الغزاة المعتدين ، وتنظيم صفوفهم فى النضال التاريخى الطويل ، ويأتى فى مقدمة ذلك الحرص على وحدتهم التى يمثل « اللسان العربى » رباطها الوثيق .

وقد ناقشت فى بعض المقالات صوراً من هذا التنظيم ، مثل اقتراح الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى ، بإقامة جبهة الشعوب العربية ، لتكون وعاء للجهود الشعبية العربية والإطار القومى الذى يحتضن

حركة المقاومة الفلسطينية ، بعد ان أجبرها الغزو الصهيونى على ترك مواقعها فى بيروت ، والتشتت فى أرجاء العالم العربى .

ومن صور التنظيم أيضا على الصعيد الرسمى ، ناقشت فكرة التطور بنظام جامعة الدول العربية المهلهل ، إلى صورة أرقى من التنظيم السياسى ، تقوم على فكرة المؤتمر المنتخب ذى السلطات الكاملة ، من أجل تعبئة جهود الأمة العربية فى نضالها ضد محاولات تمزيقها واستعبادها على أيدى مختلف أعدائها من كل صوب .

وأشرت أيضا إلى الحاجة إلى تنظيم دولى مساند للقضية العربية على أساس فضح دعاوى الصهيونية وبيان زيفها ، باسم « حركة الدفاع عن أرض ابراهيم » .

أما على صعيد التيارات السياسية المعاصرة ، فسوف يطالع القارئ حديثا عن « الدولية الخامسة » التى تضم المناضلين من أجل الديموقراطية الاشتراكية فى أرجاء العالم ، وذلك تطوير لفكرة ناقشتها قديما فى كتابى عن « الثورة الاشتراكية العالمية » الصادر فى القاهرة عام ١٩٦١ . ولكن من الواضح – إن لم يكن من المسلم به – أنه يستحيل انضمام قوى عربية صادقة إلى تنظيم دولى يقبل

الفكرةالصهيونية ، التى تمثل عداوة صريحة لكل مبدأ تقدمى ، فضلا عن أن يكون مثل هذا التنظيم خاضعا للنفوذ الصهيونى ! وقد أعجبنى ما صرح به خالد محيى الدين رئيس حزب التجمع الوطنى فى مصر لجريدة حزبه ، من رفض انضمام حزبه إلى « الدولية الثانية » الاشتراكية ، لكونها تضم حزب العمل الإسرائيلى الباقى على صهيونيته .

وأخيرا فأعتذر للقارىء مقدما إذا ما وجدنى فى بعض المقالات مضطرا أن أعيد ما سبق أن قلته فى مقال سابق ، عن أصل الصهيونية المعاصرة ، وذلك على الأخص فى مناقشاتى مع بعض مفكرينا وأدبائنا البارزين ، فإن غموض تلك الفكرة عند أمثال هؤلاء ، يجعلها بالضرورة أشد غموضا عند من دونهم من قرائهم على سبيل المثال . والمعركة فى النهاية ، كما سوف يتضح لقارىء الكتاب ، بيننا وبين الدعاوى الكاذبة للصهيونية — والتى هى موضوع هذا الكتاب وأشباهه — هى معركة إعلامية بالدرجة الأولى .

القاهرة فى ١٥ / ٤ / ١٩٨٤ **عبد الرحمن شاكر**



١ - أوقفوا تدفق الخزر على الشرق الأوسط

ذكرت بعض الصحف العربية أن « إسرائيل » تحاول تحسين علاقاتها حاليا مع الاتحاد السوفيتى ، من أجل أن يسمح بهجرة أعداد أخرى من اليهود فى روسيا إلى إسرائيل ، وذلك توطئة لتوطينهم فى الضفة الغربية المحتلة ، التى تنوى إسرائيل ، افتعال الأسباب ، لطرد سكانها العرب ، وتنفيذ الهدف الصهيونى فى تهويد جميع الأراضى الفسطينية .

ويقع الاعلام العربى ، وكثير من الساسة العرب ، فى خطأ كبير ، حينما يأخذون كقضية مسلم بها : أن اليهود الآتين من روسيا أو بولندا أو كافة أقطار شرق أوروبا ووسطها ، هم بالفعل من « بنى إسرائيل » ، الذين لحق بأجدادهم « الشتات اليهودى » فى أرجاء الأرض . ولا يدرى الذين يرددون التعبير الأوروبى عن « معاداة السامية » ، أو يصفون هؤلا بأنهم « أولاد العم » (!) أو حتى يتحدثون عن الصراع الحالى بأنه امتداد للصراع القديم بين الإسلام واليهود من بنى إسرائيل .. لا يدرون انهم يخدمون أغراض الصهيونية من حيث لا يشعرون .

(*) نشرت بمجلة الحوادث اللبنانية فى ٧ أغسطس ١٩٨١ .

إن يهود روسيا وشرق أوروبا ، ليسوا ممن لحقهم شتات بنى إسرائيل القديم المعروف ، والأرض التى يقيمون عليها حيث هم هى أرض آبائهم وأجدادهم الفعلية . والهجرة منها – ولو إلى « إسرائيل » – فضلا عن أمريكا وغرب أوروبا – هو الشتات الحقيقى بالنسبة إليهم .

فهؤلاء – يهود روسيا وشرق أوروبا – هم سلالة قبيلة تركية كانت تعرف باسم « الخزر » التى ينسب إليها حتى الآن بحر الخزر أو بحر قزوين ، فى شمال إيران وجنوب روسيا . وهذه القبيلة تنتسب إلى الجنس القفقاسى أو THE ALTAIÇ RACE ، الذى تنحدر أصوله من جبال الأورال وليسوا ساميين أو عبرانيين بحال من الأحوال .

فى القرن السابع الميلادى قامت لهؤلاء الخزر دولة كانت تعرف باسم « خزريا » وعاصمتها « إتل » عند مصب نهر الفولجا فى بحر الخزر ، ونشبت بينها وبين الدولة الأموية حروب منعت العرب والمسلمين من التوغل فيها . وكانت إتل مركزا تجاريا كبيرا يبيعون فيه أولادهم وبناتهم لذوى اليسر ! أما ديانتهم فكانت عبادة « فالوس » أو عضو الذكورة رمزا لإلَهٓ الخصب عندهم .

واعتنق كثير من الخزر الإسلام والمسيحية ، على أيدى الوافدين من بلاد العرب أو بيزنطة . فخشى « خاقان » الخزر ، أو ملكها كما كان يدعى ، أن يضيع ملكه بسبب هذا الوضع ما بين الدولة العباسية المسلمة وبيزنطة المسيحية . لذا قرر الخاقان بولان فى أواخر القرن السابع الميلادى أو أوائل القرن الثامن ، اعتناق « اليهودية » باعتبارها ديانة سماوية « محترمة » ويبقى فى الوقت ذاته متميزا عن الدولتين المذكورتين .

وبعد بولان تولى « عبديه » وهو اسم عبرانى ، وكان ذلك الخاقان أول من تسمى بمثله من ملوك الخزر ، وقد أصدر قرارا بألا يتولى ملك الخزر إلا من يعتنق الديانة اليهودية ، فاعتنقها كل أفراد الأسرة الحاكمة والبلاط ، وتبعهم معظم شعب الخزر فيما بعد .

ودام ملك « خزريا » قرابة قرنين من الزمان ، ما بين نهرى الفولجا والدانوب ، وهى منطقة أوسع بكثير من فلسطين التى قامت عليها إسرائيل القديمة .

وبدأت قبيلة صغيرة ، تعرف « بالرس » . تنشط وتتوسع فى مدينة كييف التى كانت « خاقانية » خزرية ، واعتنق أمراؤها

المسيحية وتحالفوا مع بيزنطة فى انتزاع الملك من الخزر ، وجاء الغزو التترى ليسيطر على الاثنين زمنا ، لكنه لم يفرض تغيير الديانة بالرغم من أن « خانات » التتر اعتنقوا الإسلام وأقاموا دولتهم المسلمة فى قازان . وكانت بعد « خزريا » ثانية الدول الكبرى فى المنطقة .

وبعد ما تغلب أمير موسكو على الخان التترى وأعلن نفسه قيصرا على روسيا الكبرى – الدولة الثالثة القائمة على عقيدة سماوية – غاصت خزريا فى بطون التاريخ تماما . وخاصة بعد انتزاع القرم آخر معاقل الخزر . وأعلنت روسيا المقدسة نفسها وريثة « بيزنطة » التى سقطت فى أيدى العثمانيين .

وفى عصر القوميات أى القرن التاسع عشر بدأت سياسة « الترويس » بالقوة للأجناس غير الروسية التى تعيش فى « روسيا الكبرى » بإجبارها على اعتناق المسيحية ، وتعلم اللغة الروسية ، وارتداء الزى الروسى وأصابت تلك السياسة التتر المسلمين ، والخزر اليهود على السواء . ووقعت فيها اضطهادات ومذابح كثيرة .

من هنا ولدت الحركة الصهيونية بين يهود روسيا ، وبدأت جمعيات أحباء صهيون تتشكل وتنتشر بينهم ، ولما كانت ديانتهم

هى اليهودية ، ويتلون « التوراة » ، وقر فى نفوس غير ذوى العلم منهم أنهم حقا من بنى إسرائيل ؟ ! حالة تقمص غريبة لم يعرف التاريخ لها مثيلا ، وهى تشبه أن يعلن مسلمو « الملايو » مثلا أنهم من قريش !! وإن كان الأمر غير ذى أهمية عند العرب لو ادعوا ذلك ...

وقد أيدت بريطانيا الصهيونية السياسية فى أواخر أيام الحرب العالمية الأولى لغرضين :

السيطرة على العالم العربى عن طريق دولة دخيلة .

منع اليهود الخزر فى روسيا وشرق اوروبا من الانحياز للشيوعية الثائرة على النظم الاستبدادية التى تضطهدهم .

وليس من قبيل المصادفة أن بين صدور وعد بلفور والثورة البلشفية أياما معدودة فى نفس عام ١٩١٧ .

أما الأغلبية العظمى من « الخزر » فقد هاجروا قبل الصهيونية إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكتبهم تسمى ذلك « بالخروج » ، على غرار خروج بنى إسرائيل من مصر ، وشكلوا الجالية اليهودية الكبرى فى أمريكا ، التى تعطف – قوميا وليس دينيا فحسب – على اليهود « الأشكناز » الذين أقاموا دولة إسرائيل

ويحكمونها الآن . ويشكل « خزر » روسيا وأمريكا وشرق أوروبا وإسرائيل أكثر من ٩٠٪ من يهود العالم !

وتحارب الصهيونية بكل شدة إعلان تلك الحقيقة ، إلى حد جمع الكتب وإحراقها ، ومنها ما يؤلفها كتاب « خزر » منهم الكاتب المجرى الأصل الأمريكى حاليا آرثر كوستلر ، عن تاريخ الخزر ، الذى اعتمد فيه على تاريخ بلاده المجر ، وكثير من المصادر العربية القديمة ، منها رحلة ابن فضلان .

وواضح غرضهم – أى الصهاينة – من ذلك ، أنهم بالأكذوبة الضخمة التى يسعون بها عبر أجهزة الدعاية والإعلام فى أنحاء العالم الغربى ، يستمرون فى تنفيذ مآرب الصهيونية فى إقامة دولة كبرى فى المنطقة ، ولو على حساب أقوام قد يكون بينهم أبناء حقيقيون لاسرائيل اعتنقوا المسيحية أو الإسلام بعد ذلك من سكان فلسطين ! وحتى اليهود الشرقيون يعاملون داخل « خزريا الجديدة » معاملة المواطنين من الدرجة الثانية !

إن من مسؤولية الإعلام العربى أن يفضح تلك الكذبة البلقاء فى كل مكان ، وأن يطالب الاتحاد السوفيتى بأن ينشر تاريخه كاملا ،

إن لم يكن لصالح العرب المنكوبين بالصهيونية ومزاعمها ، فلصالح الاستقرار فى ربوع بلاده ، الذى تزعجه الدعاية الصهيونية بين يهود روسيا ، لإقناعهم بأن تلك ليست بلادهم ، وذلك لتسخيرهم فى اغتصاب بلاد الاخرين !

ومما يذكر أن لينين عقب الثورة البلشفية امتنع عن إعطاء « الخزر » اليهود جمهورية مستقلة ، أو شبه مستقلة مثل غيرها من القوميات على أساس أنهم قد اندمجوا بالشعب الروسى ، كما رفض من قبل طلب جماعة « البند » أى الاشتراكيين اليهود الاحتفاظ بمنظمة مستقلة داخل الحزب الاشتراكى الديموقراطى الروسى ، والشيوعى البلشفى فيما بعد ، فهل كتب على العرب أن يدفعوا ثمن تصرفات القياصرة والبلاشفة على السواء ؟!

أما حكاية « دريفوس » فى فرنسا ، التى انطلقت معها وانتشرت عبارة « معاداة السامية » . فهى إن جازت على يهود غرب اوروبا ، الذين ينحدر كثيرون منهم من أصل « أندلسى » حيث كانت تعيش جالية كبيرة منهم بين العرب هناك ، وهاجروا بعد سقوط الأندلس إلى أصقاع كثيرة ، فان هرتزل قد أجاد استخدام هذه الحادثة فى إثارة عطف الليبراليين الأوروبيين على الصهيونية ،

ولكن شغله الشاغل الحقيقى كان مواطنيه الخزر من يهود روسيا الذين لا تنطبق عليهم صفة السامية ، ولقد فكر فى مكان آخر لهم خلاف فلسطين يقيمون عليه دولتهم حينما أوشك على اليأس من الحصول عليها ، ولكن خزر « أحباء صهيون » ألزموه بالالتزام بفلسطين مطلبا لحركته ، وكانت الفضيلة الوحيدة عنده لاختيارها أنها تمثل « الاسطورة » ، وهى بالفعل كذلك ، ولكنها تحولت إلى واقع مفزع ، فهل يوضع حد لمزيد من مآسيه ؟!

* * *

٢ - اليهودية عند ديان ...دولة ! (*)

نعت جريدة « التايمز » البريطانية موشى ديان بقولها : إن موشى ديان بالرقعة السوداء اللامعة على الجانب الأيسر من وجهه الصفيق ، صار رمزاً عالمياً للجرأة الشيطانية ، حينما اكتسحت قواته ، على غير المتوقع ، كلا من الجبهات المصرية والأردنية والسورية فى حزيران عام ١٩٦٧ ، فى حرب الأيام الستة التى صنعت التاريخ . وبعد ذلك بست سنوات كان كل من أرامل الحرب فى حالتهن الهستيرية ، والآباء والأمهات الثكالى يبصقون عليه فى شوارع إسرائيل ، ملقين عليه باللائمة باعتباره وزيرا للدفاع ، فى الخسائر الفادحة التى حدثت حينما أخذت على غرة قواته الشديدة الاعتزاز بقوتها ، بالهجوم المصرى السورى فى يوم التكفير من عام ١٩٧٣ .

تلك هى خلاصة « أسطورة ديان ، الذى تعتبر « جيروزاليم بوست » أن قصة حياته ، « هى من جوانب متعددة ، قصة إعادة مولد » الوجود القومى لليهود فى أرض إسرائيل ،

(*) نشرت بمجلة الحوادث اللبنانية فى ٢ أكتوبر ١٩٨١

ودولة إسرائيل ذاتها » ، وكلا العبارتين للتايمز وجيروزاليم بوست ، تصفان بدقة ، الدولة الوليدة « وجنرالها » معا !

ولعل الشعب المصرى كان أول من أحس بتجسيد ديان للدولة الإسرائيلية بجميع صفاتها وصفاته ، حينما راح الشباب المصرى ينشد فى جنازة عبد الناصر ، الذى مات فى الفترة ما بين الحربين :
« يا ديان يا ابن الكلب ، عبد الناصر هو الشعب »!

وتعود « صفاقة » الجنرال ديان إلى يوم مولده ! ففى كتابه عن تاريخ حياته يدعى أنه أول مولود من جيل « السابرا » أول « كيبوتز » أقامه اليهود المهاجرون من فلسطين ، بينما تقول « جيروزاليم بوست » إنه الثانى ، أما الأول فهو جدعون ، ابن يوسف ومريم باراتز . فقد ولد ديان فى ٤ مايو ١٩١٥ فى مركز إيواء اسكتلندى بطبريا . وقد جاء أبوه صمويل ديان إلى فلسطين عام ١٩٠٨ – وهو سليل « الرابى » فنحاس – أحد زعماء « الحاصدين » فى كورتز – من « زلوتوت » فى أوكرانيا الروسية ، وأحد أجداد صمويل كان اسمه « ديان » ، بمعنى قاضى الشريعة ، وهو أصل اسم الأسرة . وجاءت أمه « دفورا » إلى كيبوتز « رحبانيا » ، حيث كان يقيم أبوه ، وهى مثله من منطقة « كييف » فى أوكرانيا . ويقول ديان

إن أباها كان اليهودى الوحيد فى قرية بركوروفا على نهر الدنيبر ، وكان يعمل مديرا لدى رجل أعمال ، كان يقوم بقطع الأشجار وتركها ليحملها تيار الماء حينما يذوب الجليد فى النهر حتى تصل إلى مواضع استهلاكها . وكان جده لأمه مثل أسرة أبيه ، من عائلة « ربانية » ، يقول عنه إنه كان ضليعا فى العبرية ، وكان يقضى أيامه ولياليه الطويلة – فى انتظار أن يفيض النهر – فى القراءة والكتابة ، وقد نشر كتابا عن حياة اليهود فى إحدى فترات اضطهادهم بروسيا فى القرن السابع عشر ، واشترك هذا الجد فى الحركة الصهيونية وراح يتابع بشغف عملية المستوطنات اليهودية التى يقوم بها يهود روسيا فى فلسطين ، والتى كان أبوه صموئيل من أوائل من نشطوا لها استجابة للدعاية الصهيونية ، التى كانت تكثر من إصدار كتيبات تتغنى « بعجائب أورشليم » ، و « أرض الأردن » ، و « مياه البحر الأحمر » ، و « منحدرات الجليل » .. إلخ .

ولكن الذى يحير ديان ، وفى زعمه أيضا أن أمه لم تكن واعية بالتحول الذى جرى لها ، هو ذلك التحول حينما قررت أن تصبح صهيونية وتسافر إلى فلسطين . فهذه الفتاة قد تلقت تعليما علمانيا فى المدارس الروسية دون أن تشارك أباها ثقافته العبرية ، والتحقت

بجامعة « كييف » ، حيث انضمت إلى لجنة طلابية من الاشتراكيين الديموقراطيين . وكان الحزب الاشتراكى الديموقراطى قد عقد مؤتمره الثانى عام ١٩٠٢ ، حيث انعقدت زعامته للثائر الشاب « فلاديمير إليتش لينين » الذى استطاع أن ينتزع قيادة الحركة الماركسية من أيدى بليخانوف ، بآرائه وتكتيكاته الجديدة ، وهى كلها تقوم على أساس تحويل الحزب إلى منظمة حركية ، تعتمد أساسا على دائرة ضيقة من المحترفين الثوريين ، الذين يشكلون تنظيما حديديا سريا . واستطاع بعد ثلاث سنوات أن يخوض معركة ثورية ضد الحكم القيصرى ، فى ثورة سنة ١٩٠٥ التى بدأت بيوم الأحد الدامى ، وذلك بعد هزيمة روسيا فى حربها ضد اليابان سنة ١٩٠٤ .

ولكن الثورة هزمت ، واستولى القنوط على زعمائها ، والمشاركين فيها بمن فيهم لينين نفسه ، الذى لم يكن يتوقع أن يعيش حتى يستولى هو وحزبه على الحكم بعد مرور ١٢ سنة فقط على هزيمة الثورة الأولى .

هل كانت هزيمة الثورة التى صدمت « دفورا » بأهوالها هى التى حولتها من ماركسية لينينية ، إلى يهودية صهيونية ؟ أم كانت هناك عوامل أخرى ؟

يقول ديان فى الفصل المسمى « بالأصول » ، أى الجذور التاريخية لحياته وفكره ، إن طريقة إنشاء الكيبوتز اليهودى والإقبال على العمل اليدوى من الزراعة والبناء كان تطبيقا لتعاليم الحركة العمالية الاشتراكية اليهودية فى روسيا التى كانت تعرف باسم « البند » . وإقامتها لتلك المستوطنات « الشيوعية » فى فلسطين ، كان شبيها « بالمستعمرات الشيوعية » ، التى أقامها « روبرت أوين » قبل ذلك بقرن من الزمان تقريبا . فى نيولونارك بأميركا وفشلت . إلا أن مستعمرات « البند » كانت قاصرة على اليهود وعلى أرض محددة هى فلسطين . وفى المؤتمر المشار إليه للحزب الاشتراكى الديموقراطى الروسى رفض لينين انضمام « البند » للحزب على أساس بقائهم كمنظمة مستقلة لليهود . وأصر على ضرورة « اندماجهم » فى الحركة العمالية الروسية بأسرها ، وخاصة – أن الجميع – باعتبارهم ماركسيين ، كانوا ملاحدة علمانيين ، ليس من « المفروض » أن يقيموا للفوارق الدينية وزنا .

فما هى الأزمة النفسية التى اجتاحت والدة ديان فى الواقع ؟ هل تكون هى أزمة « البند » بصفة عامة ؟ لاشك فى أن أجداد ديان من المؤرخين والقضاة و « الربانيين » يعرفون تاريخ اليهود فى روسيا

جيدا ، ويعلمون أنه بدلا من القيصر الروسى ، كان أول ملك لتلك البلاد هو الخاقان اليهودى من سلالة الخزر ، وأن « كييف » التى نشأوا فيها كانت خاقانية أى ولاية ، تابعة لدولة خزريا اليهودية ، وفيها بدأ الروس الذين تنصروا نشاطهم للقضاء على الدولة اليهودية وإقامة دولتهم مكانها ، بعد أن ورثوا منها التحالف مع بيزنطة قبل سقوط هذه الأخيرة فى أيدى العثمانيين . وأن ما يسمى باضطهاد اليهود فى روسيا ، كان جزءا من سياسة الترويس التى فرضها القياصرة الروس فى عصر القوميات على كل من الخزر اليهود والتتر المسلمين على السواء . ويعلمون أيضا – هؤلاء المؤرخون والكهنة ، أولا وقبل كل شئ ، أنهم وقومهم من الخزر ليسوا من سلالة بنى إسرائيل الساميين ، الذين كانت لهم دولة فى فلسطين منذ أكثر من ألفى عام ، وإنما اعتنقوا الديانة اليهودية فحسب ، بعد ذلك بأكثر من ألف عام ، وبالتحديد فى عهد هارون الرشيد من الشرق وشارلمان من الغرب !

قبل أن نعود إلى محاولة اخراج موشى ديان وأمه من حيرته نسأل : إلى أى حد يعتبر ديان نفسه يهوديا ؟ فاليهودى طبقا للتعريف الاسرائيلى ، هو من تكون أمه يهودية ، أى من سلالة

إسرائيلية موثوقة ، والتعديل الحديث يضيف إلى ذلك : أو من تكون أمه قد اعتنقت الديانة اليهودية اعتناقا صحيحا . وأم ديان لم تكن هذا ولا ذاك ، فمن حيث كونها « خزرية » روسية لم تكن إسرائيلية الأصل بحال من الأحوال ، أما عقيدتها فكانت « المادية التاريخية » طبقا لتعاليم الماركسية التى اعتنقتها فى شبابها المبكر ، ولكن يبدو أن مشكلتها أنها مثل ولدها ، ومثل قومها من الخزر « البند » كانوا طلاب ملك ، ودولة فحسب ، تحت أى اسم يعملون ، وأى سياسة يتبعون .

فعلى خلاف أم ديان ، بقى كثير من « البند الخزر » داخل الحركة الثورية الروسية ضد القيصرية ومن جناحها الاشتراكى ، بأمل أن يحكموا روسيا كلها بعد نجاح الثورة . ولولا أن عصف ستالين بعد موت لينين بمعظم العصبة اليهودية فى قيادة الحزب البلشفى بدءا من تروتسكى إلى زينوفييف ، وكامنيف وبوخارين ، لكان حكم روسيا الآن يهوديا خزريا محضا ، لذلك اتجهت البقية منهم ، وحملوا ستالين ذاته فيما بعد ، إلى تأييد المشروع الاحتياطى « للبند » وهو المشروع الصهيونى ، الذى أيدته بريطانيا بوعد بلفور فى نفس فترة الثورة الشيوعية ، أملا فى تحول اليهود الخزر إليه بدلا من

الشيوعية ، ولتقديم وريث جديد خلاف العرب للإمبراطورية العثمانية المتداعية ، التي حرص ديان على أن يسجل سقوطها بعد مولده بأعوام قليلة ، وهو الذي ولد باعتباره واحدا من رعاياها، لأن فلسطين قبل مولده كانت جزءا من تلك الدولة الآيلة للسقوط ، وكان ألد أعدائها جارتها روسيا ، ووريثة معظم أملاكها بريطانيا .

والخليط الماركسي – الصهيوني يبدو واضحا جليا من كتابة ديان عن أصوله ، فالحديث عن الفرق ما بين « الكيبوتز » ، « والموشاف » أو المزرعة الجماعية والتعاونية ، يذكر تماما بحديث السوفيات عن الفرق بين الكولوخوز والسوفخوز ، بل إنه يستخدم من « ثقافة » أمه نفس التعبير الذى استخدمه لينين فى وصف برنشتاين وجماعته فى الحزب الاشتراكى الألمانى بالمراجعين ، حيث يطلقه ديان على جماعة « الأرغون زفاى ليومى » فيصفهم بالمراجعين اليمينيين !

فالشك فى كل ما يحيط بديان من أول نشأته هو حقيقة شعوره إزاء الاشياء ، بحيث لم يبق أمامه إلا الكذب الصريح الوقح ليصنع به الحقيقة كما يريدها ، ويتلون فى ظلها كما يشاء . فهو يصدر كتابه بحديث عن تحريره للقدس أو أورشليم باعتباره ذروة مجده ، ولا يفوته أن يدعى أنه هو الذى أنزل العلم الإسرائيلى ، الذى رفعه جنوده

المندفعون من على قبة الصخرة حفاظا على حسن العلاقات مع سكان القدس العرب ، وأنه فى الوقت الذى أزال فيه الحواجز بين الجانبين الشرقى (العربى) والغربى (الاسرائيلى) للمدينة ، حرص على بقاء الأماكن المقدسة للمسلمين والمسيحين دون مساس ، كأن المسجد الأقصى لم يحرق بعد ذلك ، ولم تجر المهازل أمامه وأمام كنيسة القيامة !

غير أن ذروة اعتراف ديان على حقيقة مشاعره هى حينما يصل إلى وصف إعلان دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ حيث يقول هى: « تحت مشاعر الفرح كان هناك شعور أعمق بكثير ، فقد شعرت لأول مرة بأننى يهودى كما لم أشعر من قبل ، لقد شعرت فى عظامى بانتصار اليهودية ، التى كانت منفية من أرض إسرائيل لمدة ألفى عام تحملت فيها مختلف الاضطهادات » .

وبغض النظر عن مغالطته فى حكاية الألفى عام ، حيث أن « دولتهم » الخزرية فى روسيا لم تزل إلا من سبعة قرون فقط ، إلا أنه شتان بين هذا الاحساس لدى « محرر أورشليم » على حسب زعمه بيهوديته باعتبارها توأما لولادة « الدولة » ، وبين مشاعر اليهود من سكان القدس العتيقة ذاتها ، وهم أعضاء جماعة

« نيوتورى كارتا » ، الذين اعتبروا قيام دولة إسرائيل الحالية بقوة السلاح ضربا من التجديف والهرطقة وإهانة للديانة الموسوية ، ومازالوا حتى الآن يرفضون الاعتراف بتلك الدولة التى قامت على الغش والكذب والطغيان على أيدى أقوام هم مجرد أدعياء لبنى إسرائيل وليسوا منهم !

ولكى يدلل ديان على أكاذيبه الكبرى لجأ إلى إعطاء صفة المؤرخ والمهتم بالآثار على نفسه ، حتى لقد سمح فى عز مجده باتهامه بسرقة الآثار ، ثم تلقى بعد ذلك شكرا من الجهات المعنية فى إسرائيل على اهتمامه بها ! ونفس الغش الذى يحيط بديان وبدولته معا ، هو الذى جعله يلتحق بقوة الشرطة الفلسطينية قبل الحرب العالمية الثانية ، ويعمل فيها خفيراً ، ليسرق السلاح ويعطيه لأفراد عصابته من « الهاغانا » ، وكان ذلك سببا فى محاكمته وحبسه لمدة عام أو أكثر قبل الإفراج عنه ، ليتولى الكابتن وينجت البريطانى (وينجت باشا سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام فيما بعد) تدريبهم على القتال ويشتركون باعتبارهم كتيبة استطلاع فى الغزو البريطانى بالقوات الأسترالية لسوريا ولبنان ، حيث يفقد ديان عينه اليسرى فى موقعة الدامور .

ويساوره الشك حينما يدخل أول معركة للدفاع عن المستوطنة التى كان يقيم فيها فى « نحال » ، حيث يشك فى أن الذى وجه إليه الضربة التى أفقدته الوعى هو صديقه « العربى القديم » المسمى « وحش » .

وقد مزج ديان تعاليم « وينجت » العسكرية ، مع دراساته التاريخية فى صنع نظرية الأمن الإسرائيلى حيث كان يتفقد المواضع التاريخية للمعارك القديمة وبقايا القلاع الرومانية ويرى نقاط الضعف والقوة فيها ويقال إنه فى غزوه لسيناء مرتين قد اتبع ذات الطريق الذى اتبعه الرومان لفتح مصر فى العصور القديمة . ومن تعاليم نظريته عن الأمن نقل المعركة إلى أرض العدو بأسرع ما يمكن وبناء المستوطنات المتطرفة على أقصى الحدود كمواقع متقدمة تؤدى مهمة عرقلة العدو حتى يتم تعبئة القوات الأساسية ، كل ذلك داخل فى فكرة الغلاف الأمنى لإسرائيل ، والمتولدة عنها فكرة إسرائيل الكبرى ، ومطالبته بالأراضى التوراتية تقوم على استراتيجيته العسكرية وليس على مجرد الأوهام الدينية ، بل إن تلك الأوهام هى فى خدمة الاستراتيجية ، وفى محادثات « كامب ديفيد » لم يوافق بيجين عن الجلاء عن سيناء الا بعد أن استشار ديان فى انعكاس ذلك على الاستراتيجية العسكرية لأمن إسرائيل .

ومن تعاليم ديان العسكرية أيضا ، أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع ، وهو يتطلب من الجندى الإسرائيلى أن يتلقى فرقة فى حرب الكوماندوس أو يكون مظليا على الأقل ، ولعل سر ارتباك ديان فى حرب ١٩٧٣ ، هو أنه هو الذى فوجئ وليس العدو كما اعتاد فى جميع حروبه ، ولم تتعدل الموازين من وجهة نظر الأمن الإسرائيلى إلا بعد أن قام شارون بعملية الدفرسوار التى كانت مفاجأة بدورها للقوات المصرية .

وسافر ديان فترة إلى فيتنام حيث اطلع عن كثب على العمليات العسكرية هناك بين القوات الأميركية والفيتنامية ، التى كانت بمثابة حرب بين قوات نظامية ، وقوات ثورية تشن حرب العصابات متوقعا أن يكون ذلك هو نموذج القتال الذى سينشب بين المقاومة الفلسطينية والجيش الإسرائيلى . وكانت هذه الرحلة إلى فيتنام واحدة من عناصر تحول الولاء من جانب الدولة الصهيونية ، وزعيمها العسكرى إلى الولايات المتحدة الأميركية ، وصار ديان من أوثق رجال إسرائيل صلة بأميركا ، وقد نشرت عدة كتب تشير إلى أنه يعتبر واحدا من أهم رجال المخابرات المركزية الأميركية فى الشرق الأوسط .

٣ – يهود الخزر يستوطنون البلاد العربية (*)

لاشك أن حالة من الأسى والحيرة ، قد استولت – وما تزال – على الضمير العربي ، بعد الأحداث الأخيرة فى لبنان ، التى أسفرت عن خروج قوات المقاومة الفلسطينية من بيروت ، وتوزيعها على عدد من البلدان العربية ، ولم يعد السؤال المطروح هو : هذه القوات إلى أين ؟ بل الوطن العربى بأسره إلى أين ؟! .

ذلك أن « إسرائيل » قد أملت كلمتها – بأقوى وسائل الفتك والدمار – فى تلك القضية – على الأمة العربية بأسرها ، وليس على منظمة التحرير الفلسطينية وحدها ، التى صمدت ما وسعها الصمود – أطول من مختلف النظم العربية فى الحروب السالفة ، وقبلت الخروج من بيروت إنقاذا للعاصمة اللبنانية من الدمار التام ، ولسكانها المدنيين من الإبادة الشاملة ، وعلى قدر الإعجاب والاعتزاز بصمود المقاومة الفلسطينية ، كانت الحيرة الخانقة على العجز عن

(*) مجلة « الهلال » فى أكتوبر ١٩٨٢ .

تقديم أى عون عربى لهم فى ذروة المحنة ، والمعركة ، سوى الكلمات ! .

المستقبل الفلسطينى إذن لم يعد وحده المكفف بالغموض ، فى ظل القهر الصهيونى المتغطرس ، بل المستقبل العربى كله : فالدول العربية التى استضافت المقاتلين الفلسطينيين ، قيل لها – وقبل أن يصل هؤلاء إليها : إنها سوف تقدم حسابا لإسرائيل ، لو استخدم المقاتلون أرضها منطلقا لعمليات ضد إسرائيل ! . ودرس بيروت وجنوب لبنان ما يزال ماثلا فى الأذهان !! هل نحمد الله على أن مصر قد أعفاها ساستها من هذا الحساب . ؟!

على أن ذلك ليس هو الخوف الوحيد ، فالأرجح أن تقوم الدول العربية التى استضافت المقاتلين الفلسطينيين ، أو معظمهم ، بدور الحارس الأمين على عدم تقديم الحساب ! ولكن مخاوف أكبر تطل مما ينتظر الساحة اللبنانية ذاتها ، وما يحيط بها ، بعد رحيل الفلسطينيين .

هناك خطران متعانقان متقاطعان مثل حدى المقص على تلك الساحة ، هما :

الأول : خطر الصدام بين القوات الإسرائيلية والسورية ، كل

مع حلفائه من اللبنانيين أنفسهم ، حالة اصرار الإسرائيليين على أن يكون انسحاب السوريين من البقاع وشمال لبنان سابقا على انسحابهم هم من بيروت وجنوب لبنان .

والثانى : وهو الأخطر – قيام حليف « رسمى » فى الساحة العربية ، لإسرائيل ، متمثلا فى دولة مارونية ، يتزعمها أمثال بشير الجميل وسعد حداد ، اللذين كانا حليفين فعليين لإسرائيل فى المراحل السابقة . وضياع الصيغة اللبنانية التى كانت قائمة على وحدة الطوائف لحساب صيغة طائفية ، من نو ع الصيغة الإسرائيلية ذاتها ، وعلى هواها ، ولحسابها . ويتوارى خلفها الإسرائيليون قليلا ، لتتولى المهمة نيابة عنهم فى ضرب « المسلمين » ، وأنصار العروبة ، ليس فى لبنان فحسب ، بل فيما يجاورها أيضا ، بحكم الوعود ، التى أعطيت ونفذ بعضها فعلا ، بتسليح هذا الحليف على نفس المستوى ، ومن ذات الترسانة الأمريكية ، التى يأتى منها التسليح الإسرائيلى ذاته ! .

هناك خطر إذن ، من أن تنشب الحرب القذرة مرة أخرى ، على ساحة « الشام » كلها ، على الأقل ، حرب يكون الشعار غير المعلن فيها ، أو المعلن هو « دولة لكل طائفة » ، للموارنة والشيعة ،

والدروز ، وهلم جرأ ، على غرار الدولة « اليهودية » ، المسماة إسرائيل ! .[(١)]

ولاشك أن تطورا من هذا النوع ، لن يكون ضربة موجهة لفكرة « القومية العربية » وحدها ، من حيث كونها دعوة إلى الوحدة العربية ، أو الصف العربي على الأقل ، بل لفكرة « القومية » ، والدولة العلمانية ، من حيث هي ، من يوم سقوط الخلافة العثمانية ، التى كانت هى الدولة الكبرى الإسلامية ، الحاكمة لهذه المنطقة قبل مرحلة الغزو الأوربى ، ومخلفاته ! .

والواقع ، أن العرب ، قد عانوا من أكبر قدر عرفه التاريخ من التدليس والنفاق ، على يد الغزو الأوربى ، فى تلك القضية بالذات . ففى الوقت الذى كانت فيه النزعة القومية ، وعلمانية الدولة ، استجابة للإغراء الفكرى ، وأحيانا للتحريض السياسى المباشر ، والحث على نبذ « التعصب الدينى » ، الذى كثيرا ما رميت به حركات مناهضة الاستعمار الأوربى فى المنطقة العربية ، نقول فى هذا الوقت بالذات ، نفذت المجتمعات الأوربية . وما تولد منها كالمجتمع

---

(١) نشبت تلك الحرب فعلا فيما بعد ، فى صيف عام ١٩٨٣

الأمريكي على سبيل المثال غير الهين ،أمراً شبيها بما فعله عمرو بن العاص بأبى موسى الأشعرى ، حين أغراه ، بخلع صاحبه على ، أولا ، ثم قام من بعده ليقول : أخلع صاحبك كما خلعته ، وأثبت صاحبى ، يعنى معاوية ! . فالإغراء الأوربى كان شديدا جدا للعرب والمسلمين عامة لطرح فكرة الدولة الدينية المتمثلة آنذاك فى الخلافة العثمانية ، واتباع الطريق الأوربى المتحضر فى إقامة الدولة على الأسس القومية ، وحدها ، ثم شهدنا عبر الحركة الصهيونية ، التى احتضنها ذلك العالم المتحضر ، وأداً منظما لفكرة القومية ، بدءا من إقامة دولة إسرائيل ذاتها على أساس الديانة اليهودية ، وانتهاء ، كما يتوقع ويتوجس ، إلى سلسلة من الدويلات الطائفية حولها ، تكون أهمها هى الدولة المارونية الجارى تشكيلها ، تمثل – والعياذ بالله – تحالفا يهوديا صليبيا ، يحظى بكل التأييد العلنى ، أو المستتر ، من جانب القلوب الغربية ، التى تتحسس فى قاع ضمائرها وتطفو على ألسنتها أحيانا ، مشاعر العداوة والبغضاء ، للشىء الذى كان يسمى العالم الإسلامى ! تريد له الآن أن يكون مجرد « الشرق الأوسط » ، أذل سكانه فيه هم العرب المسلمون ! .

ولا يخلو – لكى نكون صرحاء – من النفاق الأوربى ، وعواقبه ، المعسكر ، الذى كان يبدى صداقة للعرب فى بعض

مراحل نضاله ، وهو المعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفيتي في قبوله لفكرة الدولة الدينية في فلسطين ، من حيث تعارضها أول كل شئ مع تطرفه العلماني ، تحت اسم الاشتراكية العلمية ، وقيام دولته الكبرى ، الاتحاد السوفيتي ذاته على الوحدة بين خليط هائل من الكيانات القومية والعرقية والدينية .

بيد أن عنصرا خاصا ، يضاعف من مسئولية الاتحاد السوفيتي ، والمعسكر الاشتراكي في أوربا الشرقية ، وهو أن « المادة البشرية » للحركة الصهيونية قد أتت ، وما تزال تأتي من هناك ، من أول تشكيل جمعيات « أحبة صهيون » في روسيا القيصرية ، منذ مائة عام تقريبا . وذلك بعد أن بدأ القياصرة الروس في اضطهاد الأجناس غير الروسية لإقامة « الدولة القومية » في إمبراطوريتهم المترامية الأطراف ، وكان من ضحايا الاضطهاد مسيحيون أوكرانيون وبولنديون ، وتتر مسلمون ، وخزر يهود ، حيث كانت الشروط الثلاثة « للروسي الحقيقي » هو التكلم باللغة الروسية ، والقبول بالحكم الأتوقراطي للقياصرة ، واعتناق العقيدة الأرثوذكسية . وهكذا كانت مخالفة تلك الشروط كلها أو بعضها داعية للاضطهاد في تلك الدولة قبل قيام الثورة فيها عام ١٩١٧ .

وعند ذكر الخزر اليهود ، الذين كانوا يعيشون فى جنوب روسيا ، وما يزال عدد كبير منهم هناك ، وفى شرق أوربا ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية حيث يشكلون الجالية اليهودية الكبرى فى العالم ، بعد أن فروا إليها فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ، نقول إننا فى هذا الصدد نعانى من مستوى آخر من الكذب والتدليس ، مضافا إلى موقف الفكر الغربى من قضية القومية ، كما تقدم ذكره . فهناك ما يشبه الاصطلاح العالمى ، على إخفاء الهوية القومية الحقيقية لهؤلاء الناس ، بادعاء أن كل يهود العالم ، يشكلون قومية واحدة ، حيث أنهم كلهم ساميون ، من بنى إسرائيل ، من الذين تشتتوا فى الأرض بعد زوال ملكهم القديم فى فلسطين منذ ألفى عام . والحقيقة الصارخة أن اغلبية يهود العالم ، هى من ذلك الجنس الخزرى ، الذى كان يعيش فى القوقاز ، على ضفاف نهر الفولجا ، وعند بحر قزوين ، الذى كان يعرف باسم بحر الخزر ، وقد اعتنقوا الديانة اليهودية فى عصر متأخر جدا عن زوال إسرائيل القديمة التاريخية فى فلسطين ، بل اعتنقوها بعد ظهور المسيحية ثم الإسلام ، حيث خشى ملوكهم من ضياع ملكهم بين الدولة العباسية المسلمة ، ودولة بيزنطة المسيحية ، فقرر ملكهم المدعو بولان – طبقا لما تذكره المصادر العربية واليهودية على السواء ، فضلا عن مؤرخى

الغرب – اعتناق الديانة اليهودية ، ليتميز عن هاتين الدولتين ، ثم خلفه ملك آخر تسمى باسم عبرانى ، هو « عبديه » ، فقرر أن لا يتولى ملك الخزر ، إلا من يعتنق الديانة اليهودية ، فتهود البلاط كله . ثم تابعه شعب الخزر بأجمعه طبقا لقاعدة « الناس على دين ملوكهم » ، وبقيت دولة « خزريا » هى الدولة الكبرى فى المنطقة التى تعرف باسم روسيا حاليا ، وجزء من شرق أوربا لمدة قرنين تقريبا ، حتى قضى عليها تدريجيا الغزو التترى ، ثم قيام القياصرة المسيحين على أنقاض الفريقين ..

نحن إذن أمام كذب أبلق ، حينما يدعى الصهاينة أن كل يهود العالم هم قومية واحدة لأنهم جميعا من بنى إسرائيل ، وعليه فمن حقهم العودة إلى أرض الميعاد فى فلسطين ولو بطرد أهلها وتقتيلهم ، فنسبة بنى إسرائيل إلى يهود العالم المعاصر لا تزيد عن ٥٪ ، هم بعض وليس كل اليهود الشرقيين الذين يعرفون باسم « السفارديم » ، وربما كان معناها أهل « السفر » أو أهل الكتاب ، كما كان يسميهم المسلمون . وأغلبية يهود العالم هم من « الأشكنازيم » وتقدر نسبتهم دائرة المعارف البريطانية بحوالى ٨٨٪ من يهود العالم ، والذى أطلق عليهم هذه التسمية هم اليهود السفارديم الذين كانوا فى الأندلس

حينما بلغهم اعتناق الخزر للديانة اليهودية . أرادوا إعطاءهم « نسبا » فى التوراة ، فنسبوهم إلى أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح الوارد ذكره فى أول الاصحاح العاشر من سفر التكوين فى العهد القديم للكتاب المقدس ، وأشكناز هذا طبقا للمعتقدات اليهودية هو أبو الأجناس التى توالدت فى القوقاز ، لذلك فان بعض الكتاب اليهود الذين يجدون فى أنفسهم الأمانة للاعتراف بالحقيقة ، مثل آرثر كوستيلر مؤلف كتاب « امبراطورية الخزر » أو « القبيلة الثالثة عشرة » ، يصف اليهود الأشكنازيم وانتسابهم إلى إسرائيل ، عن طريق اعتناق الديانة اليهودية ، بانهم أبناء « يافث فى مضارب سام » وسام هذا هو أبو بنى عابر الذين منهم إبراهيم واسحق ويعقوب الذى هو إسرائيل ، ويعلق ذات الكاتب على ذلك بأن كلمة « معاداة السامية » ، لا معنى لها حينما يقصد بها معاداة هؤلاء اليهود الأشكنازيم ، من أبناء أشكناز بن جومر بن يافث .

وإذا كان اليهود الأشكنازيم ، أو قادة الصهيونية على الأقل ، قد استمرأوا نسبة كل اليهود إلى إسرائيل ، رغم مخالفة ذلك للواقع التاريخى ، فإن الأغراض السياسية كان لها دور بارز فى ترويج تلك الأسطورة .. فنظرية « الشعب المختار » توجد جاهزة فى الديانة

اليهودية ولا تحتاج إلى صياغة فلسفة لها كما فعل هتلر وحزبه النازى ، بل ربما كان هتلر عالة عليهم فى اصطناع تلك النظرية العنصرية وتسخيرها لأغراضه السياسية . وبالمناسبة فالخزر اليهود الاشكنازيم ، هم أبناء عمومة ذات الجنس الآرى الذى نادى هتلر بتفوقه ، وليسوا بالطبع أبناء عمومة العرب كما يدعون بانتسابهم إلى إسرائيل . وإذا كان لهم فى الماضى أبناء عمومة فى الشرق فقد كانوا المماليك الذين كانوا يجلبون من أرضهم ، حيث كان الخزر قبل تهودهم يبيعون أبناءهم لتجار الرقيق من العرب والبيزنطيين . كما أنهم من أبناء عمومة الترك الذين حكموا المنطقة العربية باسم الخلافة العثمانية ردحا طويلا . وربما حدث الخزر أنفسهم فى فترة تدهور وسقوط الدولة العثمانية بأن يرثوا هم تلك السيطرة عن طريق إقامة دولة يهودية فى فلسطين يكونون هم الجنس الغالب فيها .

والجنس الغالب حاليا بالطبع على دولة إسرائيل هم اليهود الأشكنازيم ، فهم الجنس الأوربى الذى يوصف بأنه متحضر ، ومعاملتهم لليهود الشرقيين ، بمن فيهم من قد تصح نسبتهم إلى إسرائيل تشى بذلك ، وهم من فى أيديهم مقاليد الحكم والإدارة والتجارة والجيش ، وبتنفيذ مزيد من خطط الاستيطان التى يمارسونها

فى الأرض العربية المحتلة يصبحون هم الجنس الغالب من الناحية العددية أيضا .

وبالرغم من أن هؤلاء الخزر من بنى أشكناز يلوكون علنا فكرة الشعب المختار على أنها تشمل كل يهود العالم ، فان موقفهم العنصرى من رفض هجرة اليهود الزنوج الأمريكيين إلى إسرائيل ، وإعادتهم من حيث أتوا من المطار ، تدل على أنهم فيما بينهم يصرفون معنى الشعب المختار إلى جنسهم هم من الخزر ، أدعياء إسرائيل ، وربما كان شعورهم بتلك الهوية الخاصة هو المصدر الأساسى للرابطة العميقة بين الخزر فى دولة إسرائيل والغالبية الخزرية بين الجالية اليهودية فى الولايات المتحدة الأمريكية . ولا تعدم أن ترى فيلما أمريكيا ، ترى فيه شخصية « القوقازى » محاطة بهالة من التبجيل ، لبراعته وشجاعته ، و « إنسانيته » رغم أنه قد يكون « مظلوما » فى أغلب الأحيان ! كذلك قد تسمع أن « كلمة السر » التى تفتح الأبواب فى عالم السينما فى هوليوود ، هو أن يكون المتقدم إليها من أصل « روسى » وتندهش حينا تأخذ بظاهر العداوة السياسية بين روسيا وأمريكا ، ولكن المعنى يتضح لك حينما تلتفت إلى أن من يتوقون إلى حكم العالم بما فيه منطقتنا العربية هم من أبناء مثلث الخزر ، الموزع حاليا بين الولايات المتحدة الأمريكية ، ودولة

إسرائيل والبقية منهم فى المصدر الأصلى الذى جاءوا منه فى جنوب روسيا ، أى منطقة القوقاز ، وامتدادها الجغرافى المباشر عبر شرق أوربا ، وبولندا أساسا ، حتى أواسط ألمانيا ، حيث كان « الخزرى » حاييم وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل ، يقول « إن الغرب بالنسبة لنا كان هو ما وراء نهر الراين »

وإذا كان سلوك « خزر » دولة إسرائيل فى الحرب الأخيرة فى لبنان قد اتسم بالوحشية ، التى ذكرت الناس فى أرجاء العالم بالفظائع الهتلرية فى حقهم هم ، فهم يلتمسون فى الولايات المتحدة الأمريكية ليس مجرد العون المادى والعسكرى والتأييد السياسى فحسب ، بل التأييد « النظرى » أو « الأيديولوجى » أيضا ، وذلك حينما يردد بعض « أقربائهم ».من الخزر الأمريكيين أن المطالبة بحقوق الفلسطينيين بعد أن استوطنها اليهود تشبه المطالبة بحقوق الهنود الحمر بعد أن استوطن الأوربيون أمريكا ! وتلك واحدة من مشاعر الغطرسة التى يمارسها هذا الجنس هنا وهناك ، مضافة إلى الأحقاد الدينية التى يزاولون إحياءها بصورة مروعة .

نحن إذن بإزاء مسرحية بشعة ، يجرى تمثيلها على الأرض التى أعطت العالم حضارته الروحية ، وعقائده الكبرى . فالخزر اليهود ،

هم جنس قوقازى اعتنق اليهودية ، مثله فى ذلك مثل أبناء عمومتهم الآريين الذين اعتنقوا المسيحية ، وأبناء عمومتهم الترك الذين اعتنقوا الإسلام . و« الحق الطبيعى » لهؤلاء جميعا فى الديار المقدسة ، لم يكن يتجاوز حد « الحج » إلى مزاراتها الدينية . ولكن كما فعل الصليبيون فى الماضى يحاول اليهود الخزر السيطرة على المنطقة من خلال دولة أقاموها على أرضها بادعاء أنها تجمع بنى إسرائيل من شتاتهم . ولكن من ذهب إليها من بنى إسرائيل فعلا لا وزن لهم من الناحية العددية أو السياسية أو العسكرية ، أكثر من إعطاء « الديكور » المطلوب ، بينما الاستيطان الخزرى هو الحقيقة الأساسية ، وباعادة تمثيل التوراة ، على يد تلك الفرقة الخزرية المدججة بالسلاح ، قد يكون من بين ضحاياهم الفلسطينيين أو سواهم من العرب ، سليل حقيقى لاسرائيل النبى ، ثم اعتنق أجداده الديانة المسيحية أو الإسلام فى عصور لاحقة ! وهكذا يوضع العلم والتكنولوجيا المتفوقة فى خدمة خرافات لا تقوم على أساس من الحقيقة أو التاريخ بل تعاديهما . لذلك لم يكن من المستغرب أن بعض ذوى النيات الطيبة وهم حوالى أربعين ألف يهودى « أشكنازيم » يعيشون فى القدس العتيقة من قديم ، وجاءوا إليها

بدافع الصهيونية الدينية وليس السياسية ، ويطلقون على أنفسهم جماعة « نيوتورى كارتا » ، هذه الجماعة لا تزال حتى الآن ترفض الاعتراف بدولة إسرائيل بل ترى فى إقامتها على هذه الصورة ، وبمثل تلك الأساليب كفرا وإساءة فى حق الرب !! .

* * *

٤ – اليهود الروس (*)
من الحل الأشتراكى إلى الحل الصهيونى

فى زحام الأحداث الدامية التى شهدتها منطقتنا العربية خلال الصيف المنصرم ، بدءا من الغزو الإسرائيلى للبنان ، وانتهاء بالمذبحة الاجرامية التى.وقعت بالفلسطينيين فى غرب بيروت ضاع تقرير شديد الخطر نشرته « الاوبزرفر » البريطانية ، ونقلته عنها « الأهرام » القاهرية فى ٨ سبتمبر الماضى ، مؤداه أن حركة فاشية جديدة قد ولدت فى الاتحاد السوفيتى ! وفى روسيا بالذات كبرى جمهورياته ، يجتمع المئات من أفراد هذه الجماعة فى الحانات على طريقة أنصار هتلر ويرتدون قمصانا بيضاء وأربطة عنق سوداء ويعلقون شارات معدنية للصليب المعقوف ويرسمونها أحيانا على جدران المبانى والأنفاق ، ويطالبون « بإنقاذ » الجنس الأبيض فى روسيا ، وهو فى رأيهم يضم الروس الأوربيين والأوكرانيين وأبناء

(*) نشرت بمجلة الهلال فى ديسمبر ١٩٨٢.

بيلوروسيا ودويلات البلطيق دون بقية شعوب الاتحادالسوفييتى ، ويطالبون بتحويل الجمهوريات الآسيوية السوفييتية إلى مجرد مستعمرات ، وليست شركاء فى الاتحاد على قدم المساواة مع البيض ، أما بالنسبة لليهود السوفييت فيطالبون بإبعادهم إلى .. إسرائيل !!

وإذا كانت مجموعة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، تسمح ، وقد تكون عللا لنشوء هذا اللون من التفكير ، مثل نقص المواد الغذائية ، حيث ينادى الفاشيست الروس الصغار بشعار « أعطونا لحما » ، وحيث يسود التخوف من فقدان التوازن « الديموغرافى » بين الجنس الأبيض فى الاتحاد السوفييتى ، والشعوب الأسيوية فيه ، حيث تميل نسبة المواليد إلى النقصان بين البيض ، حتى أصبح معدلها طفلا واحدا لكل أسرة صغيرة ، فى مقابل ثمانية أطفال للأسرة الآسيوية المماثلة ، وخاصة فى الجمهوريات الإسلامية ، حيث البيئة أكثر دفئا وأوفر غذاء ، وأقل اندفاعا وراء العادات الغربية فى التدخين واحتساء الخمور وقضاء الامسيات فى الحانات والمراقص .. أقول إذا كانت أمثال تلك الظواهر قد تكون ظروفا مواتية لنشوء مثل هذا اللون من التفكير ، فإن المطلب الأخير لتلك الجماعة ، وهو طرد اليهود السوفييت إلى إسرائيل ،

قد يكون هو بيت القصيد فى النهاية ، والمطلب الرئيسى الذى يمكن تحقيقه عمليا ، مع جنوح الدولة الصهيونية فى منطقتنا إلى التوسع فى بناء المستعمرات وتوطين مزيد من النازحين اليهود إليها ، من « الخزر » من جنوب روسيا أساسا وقد تكون وراء نشوء تلك الجماعة أصلا أصابع الصهيونية العالمية « الطويلة » على غرار ذراع إسرائيل العسكرية الطويلة !

وليس من الغريب أن تتحالف الصهيونية مع الفاشية من أجل تنفيذ مأربها . فالصهيونية لا مبدأ لها إلا أغراضها ، ومن أجله تتلون كما تشاء . وقد قيل وكتب الكثير عن تحالفها مع هتلر ومخابراته فى بعض عمليات إبادة اليهود فى شرق أوربا لتقنع العالم بضرورة إنشاء دولة لليهود يحتمون فيها من أمثال تلك العمليات ، ولتقنع اليهود أنفسهم ممن قرروا الاندماج فى مجتمعاتهم فى عصر التنوير والمساواة أنه لا أمان لهم إلا فى دولة خاصة بهم ، ولقد كان هتلر نفسه صهيونيا بهذا المعنى ، حيث كان ينادى بضرورة إنشاء دولة يهودية ، تكون بمثابة « مزبلة » ، يلقى فيها هذا الجنس البغيض إلى قلبه ، والمنحط من وجهة نظره النازية !

ولكن الغريب حقا هو أن تنشأ حركة فاشية فى الاتحاد السوفييتى الذى قتلت النازية أكثر من عشرين مليونا من أبنائه والأشد غرابة هو أن يكون من مطالب تلك الحركة إبعاد اليهود السوفييت إلى إسرائيل بينما كان الاتحاد السوفييتى قد خصص جمهورية ذات حكم ذاتى لليهود من أبنائه كانت تدعى « بيروبدجان » ، فأين ذهبت تلك الجمهورية وما هو مصيرها ؟

يروى لنا قصة انشاء هذه الجمهورية ، ويتحدث عنها بحماسة شديدة ، كاتب يهودى يدعى آى . ريناب ، فى كتاب له بعنوان « معاداة السامية والمسألة اليهودية » .

« ولنا تحفظ على هذا العنوان حيث أن معظم اليهود وخاصة فى روسيا وشرق أوربا ليسوا ساميين بالمرة »

يقول الكاتب إن مرسوما صدر عن مجلس الرئاسة السوفييتى فى٢٨ مارس عام ١٩٣٨قبل إنشاء دولة إسرائيل بحوالى عشرين عاما بإعطاء المستوطنات اليهودية كل أراضى منطقة بيروبدجان ، وطبقا لنص المرسوم : « إذا ما استمرت عملية تعمير المنطقة بنجاح فإن تطويرها إلى إدارة يهودية وطنية ينبغى أن يكون هو الهدف » ، وهذا يعنى كما يقول الكاتب — « إقامة جمهورية يهودية سوفييتية حينما يتم تطوير المنطقة وتوفر عدد كاف من السكان بها » .

ويصف الكاتب منطقة بيروبدجان ، بأنها أرض واسعة ، تزيد قليلا على نصف مساحة بريطانيا ، وتقع فى أقصى شرق سيبريا ، تغطى أرضها الغابات والمراعى ، وتتوفر بها المياه وبها مناجم ومحاجر تنتج الجير ، وحجر البناء ، والجرانيت والرخام الملون ، والبازلت والكوارتز والجرافيت والمنجنيز وحديدا من صنف ممتاز قدر إنتاجه بأكثر من ثلاثة ملايين طن ، كما اكتشفت بها مناجم غنية بالفحم ، وأرض المنطقة صالحة جدا للزراعة وتعطى محصولا وفيرا من القمح والشوفان ، والأرز وفول الصويا والحبوب الأخرى ، وكانت المساحة المزروعة بالفعل عند تأليف الكتاب المذكور عام ١٩٤٠ ، حوالى ٢٠٠ ألف أكر . ويقول الكاتب « إنه يتضح من تلك الحقائق أن أفقا عريضا من التطور الزراعى والصناعى ينتظر تلك المنطقة ، وبالتالى الاستيطان الواسع بها » . ولكن بالرغم من تلك الإغراءات كلها لم يزد عدد المستوطنين اليهود بها حتى عام ١٩٤٠ عن ٣٠ ألف نسمة ! ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيرى فى دائرة معارفه عن الصهيونية ، إن اليهود الروس طالبوا بإقامة جمهوريتهم فى أوكرانيا أو إحدى جمهوريات آسيا الوسطى ، ولكن السلطات السوفييتية رفضت ذلك ، فأعرضوا بدورهم عن مشروعها فى بيروبدجان .

وكان من المستحيل بطبيعة الحال أن تفرغ السلطات السوفييتية أوكرانيا من سكانها المسيحيين ، أو القرم أو أذربيجان من سكانها المسلمين من أجل الجمهورية اليهودية ، وكان يكفى أن الدولة السوفييتية بعد عشرة أعوام من الثورة الروسية قد اعترفت بحاجة يهودها إلى « وطن قومى » ، بعد أن كان لينين يرفض هذا المبدأ رفضا باتا ، ليس من وقت الثورة فحسب ، بل منذ إنشاء الحزب الاشتراكى الديموقراطى الروسى فى بداية القرن ، حيث اعترض على قيام جماعة البند ، أى العمال الاشتراكيين اليهود الروس ، كمنظمة مستقلة داخل الحزب ، وأصر على اندماجهم فى صفوف الآخرين تعبيرا عن اندماج اليهود فى المجتمع الروسى ، فما بالك فى طليعة المجتمع الاشتراكى الذى يزمع إنشاءه ؟

وكان من نتائج هذا الموقف الصارم من جانب لينين ، أن تحول فريق كبير من البند إلى الصهيونية ، واختاروا الحل الصهيونى لمشكلة اليهود الروس على الحل الاشتراكى ، الذى يضمن مساواتهم بالأجناس الأخرى فى روسيا وفى الاتحاد السوفييتى ككل . ومن بين الاشتراكيين اليهود الروس « البند » الذين اختاروا الصهيونية أم موشى ديان ، وزير الدفاع والخارجية الإسرائيلى الأسبق ، وقد هاجرت إلى

فلسطين بعد هزيمة الثورة الروسية الأولى عام ١٩٠٥ ، وهناك تزوجت ووضعته ، لذلك يقول موشى ديان فى مذكراته ، إن اليهودية بالنسبة له تعنى الدولة ! وطبيعى أن يصدر هذا الكلام عن رجل لا يؤمن بدين ، وأمه أيضا لم تكن مؤمنة بدين ، وهى ، مثل كل الخزر من يهود روسيا ، وهم ليسوا من بنى إسرائيل ، وإنما هم قوم متهودون فحسب ، فما الذى بقى يربطهم باليهود واليهودية والصهيونية إلا فكرة أن تكون لهم دولة .. أى دولة ، وذلك كان تفكير هرتزل أيضا ، قبل أن يستقر على اختيار فلسطين لاستخدام « الأسطورة » ، على حد تعبير هرتزل ذاته ، فى تجميع الرأى العام اليهودى حول فكرة الدولة اليهودية ، ويعنى بالأسطورة قصة خروج بنى إسرائيل من مصر واستيطانهم فلسطين التى تدور حولها أساطير اليهود .

ومن الغريب أن تكون نشأة أحدث دولة تقوم على الدين فى العالم ، وهى دولة إسرائيل ، على أيدى رجال ونساء معظمهم « علمانيون » حتى النخاع من حيث عدم إيمانهم بأية عقيدة دينية ! فقد خرجت الحركة الصهيونية فى روسيا من أيدى الجيل القديم من قراء التوراة ، ممن شكلوا جمعيات « أحبة صهيون » خلال

العسف القيصرى بدءا من عام ١٨٨١ ، وبدأوا حركة الهجرة الأولى إلى فلسطين ، وانتقلت إلى أيدى جيل جديد ، من أولئك « البند » أى العمال الاشتراكيين الديموقراطيين الروس ، الذين كانوا يوصفون فى تاريخ الحركة الثورية فى روسيا ، بأنهم أنشط عناصرها من أجل الإطاحة بالقيصرية واقامة النظام الاشتراكى ! ليصبح فريق منهم هم أنشط عناصر الحركة الصهيونية المتعارضة على خط مستقيم مع الفكر الاشتراكى وتصوره عن المساواة بين الأجناس ووحدة صفوف الطبقة العاملة العالمية .. الخ . وفريق من هؤلاء قد أجاد فى الواقع لعبة خلط الأوراق بين الاشتراكية ذات النزعة الدولية ، والصهيونية ذات الطبيعة المغرقة فى العنصرية ، ولم يتورع ، عند بدء تنفيذ المشروع الصهيونى فى فلسطين من وضع يده فى يد أعتى قوى الرأسمالية فى العالم التى يتحكم فيها اليهود أيضا ،،على نحو تمويل المليونير اليهودى الفرنسى المشهور روتشيلد لحركة إنشاء المزارع الجماعية « على الطريقة الاشتراكية » فى فلسطين ! وكان الهستدروت ، أى اتحاد العمال اليهود فى فلسطين هو الوريث الطبيعى للبند فى روسيا ، وينعى عليهم مؤلف الكتاب المشار إليه فى أول هذا المقال خيانتهم

للاشتراكية ليس فى توجيه يهود روسيا إلى فلسطين فحسب ، بدلا من البقاء فى الاتحاد السوفييتى والمساهمة فى بناء المجتمع الاشتراكى هناك ، بل أيضا فى حرصهم على تفرقة صفوف الطبقة العاملة فى المجتمع الذى نزحوا إليه ، وهو فلسطين ، حيث كان اتحادهم مقصورا على العمال اليهود فقط ، ولا يقبل فى صفوفه من لا ينتمى إلى الطائفة اليهودية ، من العمال العرب سكان فلسطين وأصحابها الحقيقيين . وكان ذلك الحديث بالطبع قبل إعلان الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ ، ونشوب الحروب المتوالية ، على نحو يجعل مثل هذا التصور مرفوضا من جانب العمال العرب أنفسهم .

ولم يكن من قبيل المصادفة ، أن يتزامن وعد بلفور ، فى نوفمبر عام ١٩١٧ ، مع قيام الثورة الاشتراكية الكبرى فى روسيا ، فى أكتوبر من العام ذاته ، ويروى أنها كانت فى نوفمبر أيضا ، ثم عدل التقويم الروسى بعد ذلك ..فبالإضافة إلى الأغراض الاستعمارية القديمة ، التى دعت الامبراطورية البريطانية إلى احتضان الصهيونية ، بحيث قررت إقطاعها فلسطين المحتلة بالجيوش البريطانية ، لتكون موطىء قدم دائما لها فى المنطقة ، ولتحول دون اتحادها عربيا ، بعد انحسار اتحادها إسلاميا ،

بسقوط الدولة العثمانية ، نقول بالاضافة إلى ذلك الهدف فيما يتعلق بالمنطقة العربية كان هناك هدف آخر يتعلق « بالمادة البشرية » للحركة الصهيونية ، وهم اليهود الخزر فى روسيا وشرق أوربا . وقد عبر عن ذلك تشرشل فى دفاعه عن الصهيونية ، ووعد بلفور ، بقوله : إن الصهيونية تقدم طريقا ثالثا لليهود ، بدلا من الاستبداد القيصرى ، أو الشيوعية . فالثورة البلشفية كانت على الأبواب ، وقامت ثورات شيوعية مماثلة لها فى شرق أوربا ، واحدة منها أدت إلى قيام حكومة شيوعية فى المجر بقيادة « بيلا كان » اليهودى ، نجحت الدول الراسمالية فى إسقاطها بعد ذلك . وهكذا كان وعد بلفور دعوة لليهود الخزر أن ينفضوا أيديهم من الحل الاشتراكى والشيوعى لكى يتوجهوا إلى حلم « قومى » قائم على الدعوة الصهيونية ويتخلوا عن الشيوعية ، خصوصا فى حال يأسهم من نجاح ثورتها ، أو فى حالة يأسهم من أن تكون لهم الكلمة العليا فيها !

وقد بنى هتلر حركته النازية ، على أساس الأوراق المختلطة لليهود الخزر بين الصهيونية والشيوعية فكانت معاداته مزدوجة للشيوعية وللجنس اليهودى على السواء ، وقد ساعدت حملته على اليهود وعمليات الابادة التى نظمها لهم سواء فى ألمانيا أو البلاد التى

غزاها فى شرق أوربا وخاصة فى بولندا ، على تغذية النزعة الصهيونية لديهم وأكثر من ذلك ، إلى انتشار التعاطف معها حتى بين الشيوعيين أنفسهم سواء كانوا يهودا أو غير يهود فى شرق أوربا ، رغم التعارض التام بين النظريتين الشيوعية والصهيونية والتنافس بينهما ، على المستوى العملى فى الاستحواذ على تفكير الخزر من يهود روسيا وشرق أوربا ، حتى سقط الاتحاد السوفييتى ذاته فى المصيدة بتأييده قرار تقسيم فلسطين وإنشاء الدولة اليهودية بعد الحرب العالمية الثانية . وذلك بعد أن تم للصهانية إسقاط مشروعه فى إيجاد بديل نصف قومى نصف اشتراكى ليهوده من الخزر ، ولسواهم لمن أراد من يهود العالم وشرق أوربا ، وهو جمهورية بيروبدجان التى عرضنا لأمرها فيما سلف ولكن الاتحاد السوفييتى ، كان عليه أن يدفع ثمنا فادحا لذلك التحول فى موقفه من قيام الدولة اليهودية فى فلسطين ، مدفوعا بضغوط من داخله ومن حلفائه فى شرق أوربا ، ومن عوامل انتهازية ساعد عليها خلط الأوراق المشار إليه ، حينما توهم ساسته أن اليهود النازحين إلى فلسطين ، من أبنائه أو أبناء شرق أوربا ، سوف يكونون بمثابة طلائع للفكر الاشتراكى أو التقدمى ، فى المنطقة العربية ، التى يسودها الفكر الإقطاعى المتخلف ! فكانت النتجة أن صار هؤلاء

طلائع حقا ، ولكن للعودة إلى مذابح القرون الوسطى أو ما قبلها تحت رايات المنازعات الدينية والعصبية بها – رغم كونهم علمانيين فى الأصل كما قدمنا . وكل ما تشهده منطقتنا حاليا من تمزق طائفى ومن تشنجات دينية ، سواء بظهور الجماعات الدينية المتطرفة ، أو حتى نظم مثل نظام الخومينى فى إيران ، يمكن اعتباره جزءا من رد فعل الوجود الصهيونى فى فلسطين وممارساته الطائفية العنصرية الرهيبة !

وإذا كان هذا التطور لا يصدم الاتحاد السوفييتى إلا فى مبادئه الاشتراكية والدولية .. الخ فان عقابه الأكبر كان فى تحول الدولة الصهيونية ، بعد أن نقلت ولاءها من الإمبراطورية الغاربة بريطانيا العظمى ، إلى الإمبراطورية الصاعدة الولايات المتحدة الأمريكية – إلى كبرى القواعد العسكرية لهذه الأخيرة فى العالم ، حاملة طائراتها التى لا تغرق ، وحليفها الاستراتيجى الأكبر وفى واقع الأمر يمكن اعتبار الدولة الصهيونية ، وقد أصبحت هى القوة العسكرية المتفوقة فى منطقة « الشرق الأوسط » حسب تعبيرهم البغيض ، هى جيش الاحتلال الأمريكى الدائم للمنطقة بأسرها ، رغم ما يبدو فى ظاهر الأمر أحيانا من ملامح « استقلال » لكل من

الدولتين عن الأخرى . وقد أصبح للدولة الصهيونية بتحالفها الاستراتيجى مع الولايات المتحدة الأمريكية ، أصابعها الطويلة كما قدمنا داخل الاتحاد السوفييتى ذاته ، وتكفى الضجة الكبرى ، التى يثيرونها بين الحين والآخر ، حول حقوق الانسان فى الاتحاد السوفييتى وهى لا تعنى عند الحليفين غير حق هجرة اليهود السوفيت إلى إسرائيل ، وحق الدعاية الصهيونية بين صفوفهم ، وها هى تلك الأصابع تعمل على إنشاء حركة نازية أو فاشية بين صفوف الروس أو البيض من غير اليهود فى الاتحاد السوفييتى ، حركة تقوم على تمجيد العدو الأكبر للاتحاد السوفييتى ، الذى سعى إلى تدميره خلال الحرب العالمية الثانية ، وهو هتلر ، كما قدمنا فى أول المقال !

على أن المسئولية أولا وأخيرا فى التصدى للغزوة الصهيونية وآثارها البشعة ، سوف تبقى مسئوليتنا نحن العرب المنكوبين بها منذ قامت ، ومنذ تآمر العالم بطرفيه أو أطرافه على إقطاعها جزءا من بلادنا تمهيدا للسيطرة عليها جميعا ، بمختلف وسائل الفتك والقتل والتدمير ، إلى جانب وسائل الاحتيال والخديعة ، بما فى ذلك – بل وفى مقدمة ذلك – الحرص على بقاء الأمة العربية مبعثرة القوى ،

مشلولة الإرادة ، عاجزة أن يكون لها فى أى موقف مهما تكن خطورته .. موقف واحد . وقد آن أن نتعلم شيئا من العدو الماكر الذى نواجهه ، وبدلا من أن نجعل من هذه الرابطة أو تلك ، مع قوة من قوى العالم ، أو معسكر من معسكراته ، أداة لتمزيق صفوفنا ، بما يوهننا جميعا ، علينا أن نتعلم كيف نوظف جميع روابطنا الدولية ، وعلاقاتنا مع مختلف القوى فيه من أجل قضيتنا ، وذلك بالطبع لن يتأتى لنا إلا إذا توصلنا إلى صيغة تجمعنا ، تكون بمثابة المركز العصبى ، للجسد العربى المترامى الأطراف ، الذى تهدد القوى المعادية له بافتراسه من كل جانب .

* * *

٥ – المشروع الصهيونى والمشروع العربى (*) بين عام ١٨٨٢ وعام ١٩٨٢

بين العام الذى انصرم ، عام ١٩٨٢ والعام الذى سبقه بمائة سنة عام ١٨٨٢ ، مشابه كثيرة ، وخاصة فى أحداث صيف وخريف كل منهما .

العام الأسبق – تاريخيا – أى منذ مائة عام ، شهد صيفه وخريفه ملحمة الاحتلال البريطانى لأرض مصر ، والعام الذى انصرم شهد صيفه وخريفه الاحتلال الإسرائيلى للبنان أو الشطر الأكبر منه ، وإذا كان الاحتلال البريطانى ، قد توج بدخول جيوشه الغازية القاهرة فى سبتمبر عام ١٨٨٢ ، فقد توج الاحتلال الصهيونى غزوه بدخول جيوشه بيروت فى سبتمبر عام ١٩٨٢ ، ووقوع المذابح الرهيبة فى مخيمات الفلسطينيين حولها فى صبرا وشاتيلا .

كان الاحتلال البريطانى لمصر ، منذ مائة عام ، احتلالا

(*) نشرت بمجلة الهلال فى يناير ١٩٨٣ .

لأكبر قطر عربى ، وأكبر ولاية عثمانية فى الوقت ذاته ، بل الولاية ،التى كانت تفوق فى أهميتها ، تركيا ذاتها ، قاعدة الخلافة العثمانية ، من نواح عدة ، أهمها أن مصر كانت بلد العلم الإسلامى والعربى ، الذى هو الثقافة الجامعة للدولة بأسرها ، وكانت هى المرشحة فى عهد محمد على ، وفى حال تدهور تركيا العثمانية حتى فى الناحية العسكرية التى كانت تنفرد بها ، لكى ترثها باعتبارها قائدة للأمة الإسلامية ، قادرة على تجديد كيان الدولة الإسلامية الكبرى ، بحكم عروبتها ، وقدرتها على الجمع بين الثقافة والعسكرية .

وكان تصدى الدول الغربية الأوربية الطامعة فى وراثة الرجل المريض ، لتحدى محمد على لتركيا ، معتمدا على مصر ، ولكن قمع حركة محمد على لم يؤد إلى موات الدولة التى كان قد شرع فى تجديدها ، وتمهيدها للقيام بدورها التاريخى فى المنطقة ، فالجيش المصرى الذى بدأ فى تكوينه ، كان قد صار له كيان ، وإن كان عدده قد حدد فى المعاهدات الدولية ، بعد أن كانت العسكرية فى مصر ينفرد بها المماليك الذين قضى عليهم محمد على ، والجيوش العثمانية ، من جراكسة وأرنؤود ، وخلافهم ، ومنهم محمد على ذاته وورثته .

وفى عهد توفيق ، بعد خلع إسماعيل ، كانت الثورة العرابية ـ أول ثورة يقودها الجيش المصرى النظامى الجديد ، بدءا من المطالبة بالمساواة فى الحقوق للضباط المصريين ، إلى المطالبة بالحياة النيابية والدستورية الصحيحة للمجتمع المصرى ، ولم يكن ضباط الجيش وحدهم ، بل كان يؤازرهم حزب وطنى بين صفوف المدنيين فيهم الأعيان المستنيرون ، وفيهم المثقفون من رجال الأزهر والمدارس العصرية التى بدأ إنشاؤها فى عهد محمد على لكى تمد الجيش بما يلزمه من أطباء ومهندسين وفنيين وتشرف على شئون البلاد والاقتصاد وخاصة الرى . وكان للثقافة العربية وزنها العالى المزدهر آنذاك ، حتى لقد كان لأحد قواد الثورة العرابية ، وهو محمود سامى البارودى ، المحارب القديم فى القرم شرف التلقب برب السيف والقلم ، باعتباره شاعرا مجيدا تزود من الثقافة الأدبية ما أتاح له تجديد ديباجة الشعر العربى وإحياء مجده ، حتى عكف أستاذه الأزهرى الشيخ حسين المرصفى ، على بيان مزايا شعره ، فى كتابه عن « الوسيلة الأدبية » .

ولم يفت الاستعمار بطبيعة الحال المغزى التاريخى لتلك الحركة الثورية التجديدية التى بدأت فى مصر ، من جميع النواحى عسكريا وسياسيا وثقافيا وعمرانيا ، وأدرك أنه لا يواجه فى هذه الحالة واليا عثمانيا متمردا طموحا يستند إلى قوة مصر كما كان الوضع فى أيام

محمد على ، بل يواجه مصر ذاتها ، بأبنائها ، وهم على وشك أن يطرحوا عن كاهلهم القشرة العثمانية البالية ،متمثلة فى الخديو المستبد العاجز ، وأعوانه المباشرين ، لكى يقودوا أمتهم العربية على الأقل ، إن لم تكن الأمة الإسلامية بأكملها فى حركة النهوض والاحياء ، والنجاة بها من حالة الرجل المريض ، التى كانت توصف بها الدولة العثمانية المتداعية ، والتى تغلغل الفساد وأعوان الدول الاستعمارية وعملاؤها فى صفوفها ، وأبنيتها السياسية والعسكرية جميعا.

كان قمع الثورة العرابية إذن ، قمعا لتلك الحركة فى منظورها التاريخى الجغرافى الواسع ، باعتبار مصر قلب الأمة العربية والإسلامية ، وموطن احتشاد الجانب الأكبر من قواها الفعالة سياسيا وعسكريا وثقافيا وحضاريا . وبالمرة ، كان من صالح بريطانيا ، التى تولت عن عموم الاستعمار الغربى ، مهمة احتلال مصر ، بينما تولت فرنسا ، شبيهه فى الشمال الأفريقى ، أن تصبح مصر جزءا من ممتلكاتها الإمبراطورية تؤمن لها ، وقد افتتحت بها قناة السويس ، الطريق إلى الهند ، درة التاج البريطانى الكبرى ، وأن تصبح مزرعة للقطن الرفيع المستوى للمصانع البريطانية فى لانكشير ، بدلا من أن تقوم بها صناعة تكون مقدمة لازدهارها ونموها ، واكتساب المزيد من القوة والقدرة على قيادة أمتها العربية والإسلامية فى طريق الاستقلال والارتقاء .

وريث الرجل المريض

خلال المائة عام ، التى انقضت ما بين الاحتلال البريطانى لمصر ، والاحتلال الإسرائيلى للبنان ، كانت القوى الاستعمارية فى العالم ، تعد وريثا آخر للرجل المريض ، أى الإمبراطورية العثمانية ، من غير رعايا تلك الإمبراطورية ، وخاصة العرب وعلى رأسهم مصر .
كانت تعد الحركة الصهيونية ، التى نشأت فى روسيا القيصرية عام ١٨٨١ ، قبل الغزو البريطانى بعام واحد . كان اليهود مضطهدين فى تلك الدولة الاستبدادية ، مثلهم فى ذلك ، مثل جميع المخالفين فى الجنس أو العقيدة من رعايا تلك الدولة ، كانت سياسة الترويس القاسية ، التى اتبعها القياصرة بدءا من نيقولا الأول فى عام ١٨١٥ ، تستهدف إجبار نصف سكان الدولة ، على أن يصبحوا روسا يتكلمون اللغة الروسية ، ويرتدون الزى الروسى ، ويعتنقون العقيدة الأرثوذكسية ويتجهون بولائهم المطلق للقيصر الروسى . وأذاقوا فى سبيل تلك الغاية الخرقاء الوبال ، كلا من التتر المسلمين من رعايا الدولة ، والمسيحين من

الاوكرانيين والبولنديين وسكان دويلات البلطيق ، واليهود الخزر ، الذين كانوا هم حكام الدولة قبل الغزو التترى ، وقبل ظهور القياصرة .

وإذا كان القسم الأكبر من اليهود الخزر فى روسيا ، قد فروا من تلك المذابح ، عن طريق الهجرة إلى الدنيا الجديدة ، فى الأمريكتين ، التى يسميها مؤرخوهم « الخروج » تشبيها بخروج بنى إسرائيل من مصر فى العصور التوراتية القديمة ، حتى أصبح يهود الولايات المتحدة الأمريكية هم الجالية اليهودية الكبرى فى العالم المعاصر ، فإن الخاملين منهم والعجزة عن هذا الخروج ، قد أصبحوا مادة بشرية لتلك الحركة الاستعمارية العنصرية ، التى تعرف باسم الصهيونية .

ولقد كان الجهل والكذب والتدليس ، وإثارة نعرات التعصب ، والأطماع الدينية هى أدوات تلك الحركة ، التى استهدفت تحقيق مشروع استعمارى قديم قدم الاستعمار الأوربى المعاصر منذ عهد نابليون ، وهو إقامة دولة « يهودية » فى فلسطين . فهؤلاء اليهود الروس من جنس الخزر ، هم وأضرابهم فى شرق أوربا ، كانوا معروفين لدى الدوائر اليهودية فى الشرق وفى سائر العالم القريب منه ، بأنهم جنس متهود فى عصور متأخرة وليسوا من سلالة إسرائيل

النبى ، وكانوا يعرفون باسم اليهود الأشكنازيم نسبة إلى أشكناز بن جومر بن يافت بن نوح . ومع ذلك فمن أجل الأغراض السياسية التى سعت إليها الصهيونية ، عملت على تحويل المشاعر الدينية إلى مشاعر قومية وسياسية ، والتطلع إلى أرض فلسطين المقدسة باعتبارها موطنا روحيا لمن يؤمن باليهودية ، أو أى من الديانات السماوية ، إلى ادعاء سياسى وقح بالتملك « الوطنى » ، رغم جميع حقائق التاريخ ، وفى تناقض مرير معه . فاليهودى الطارئ لم يعتنق آباؤه اليهودية إلا منذ ألف عام كما هو شأن اليهود الخزر فى روسيا وشرق أوربا ، وهم لا يملكون تاريخيا بل ولا من الناحية الدينية وحدها أن يدعوا أنهم أبناء إسرائيل يعودون إليها ولو بطرد أبناء إبراهيم الحقيقيين منها من العرب الفلسطينيين . وكلمة الفلسطينى الواردة فى الكتاب المقدس باعتباره عدوا « لإسرائيل » لا تنطبق على الفلسطينى المعاصر بحال ، فالأول كان وثنيا يعيش فى تلك الأرض أيام ظهرت الديانات ، أما هذا الأخير فهو وريث تلك الديانات بما فيها ديانة إسرائيل : تنصر آباؤه أو أسلموا ، أو سليلا لإسماعيل عمه ، وعلى الحالين ، وفى ظل أى احترام صحيح للعقائد الدينية وتاريخها لا يملك أحد أن يقتله أو يطرده من أرضه باسم إسرائيل ولا سواه فضلا عن الحقوق الإنسانية بمفهومها المعاصر .

ولكن بإثارة التعصب الدينى لدى سوقة الخزر الذين سلبوا المعرفة بأصُولهم الحقيقية وأصول من يحاربون فى اغتصاب فلسطين ، تم تحويلهم على نحو إجرامى إلى قطيع من القتلة ، من خلال إعادة تمثيل التوراة فى غير تاريخها ، بل بعد هذا التاريخ بألوف السنين على مسرح تغيرت صورته تماما ، وكان على رأس حركتهم سفاحون شديدو الانحطاط يعرفون حقيقة الأمور ويزورونها ، وليس لديهم ولاء ولا حتى للديانة التى ينتسبون إليها ، وانما هم ساسة مغرضون — كثير منهم علمانيون لا تربطهم صلة بأية عقيدة وإنما يسخرون العقائد من أجل أطماعهم ، كما يتحالفون مع الشيطان ويجعلون أنفسهم مطية لأى من أغراض الدول الكبرى ما دامت تكفل لهم تحقيق مآربهم المتمثلة فى مشروعهم الشيطانى .

ولاء الدولة الصهيونية

وفى خلال المائة عام ، حتى الثلاثين الأخيرة منها تقريبا ، كان شغل مصر الشاغل هو التخلص من الاستعمار البريطانى ، عبر سلسلة من الثورات عليه والتفاوض معه ، بدءا من ثورة ١٩١٩ بعد الحرب العالمية الأولى ، إلى الحركة الوطنية عام ١٩٤٦ بعد الحرب

العالمية الثانية . كانت الإمبراطورية العجوز قد هرمت ودب فيها التآكل رغم خروجها من الحرب « منتصرة » ، ولكن قوتين أخريين كانتا فى طريقهما إلى الظهور باعتبارهما أكبر القوى الدولية ، وهما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى ، وكان لكل منهما مأربه فى تصفية الاستعمار القديم والتفرغ لصراعها الجديد على السيادة على العالم أو على الأقل توجيهه أو جزء منه بما يتفق مع مصلحة إحداهما .

وقد أعان وجود الدولتين الكبريين وصراعهما أيضا ، مصر وسواها من المستعمرات السابقة على التخلص من الاستعمار التقليدى ، البريطانى والفرنسى أساسا فى الشرق العربى وفى آسيا وافريقيا . ولكن مصر فى أواخر أيام الاحتلال البريطانى وجدت نفسها تواجه الخطر الجديد المتمثل فى الصهيونية وأطماعها فى فلسطين ، حتى لقد اصطلح عليها فى حرب واحدة بعد خروج البريطانيين من أرضها ، عدوان ثلاثى عام ١٩٥٦ ضم دولة الصهاينة إلى دولتى الاستعمار التقليدى إنجلترا وفرنسا ، قبل أن يقضى المجتمع الدولى بقيادة الدولتين الكبريتين على المعتدين جميعا بالانسحاب .

كان قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ بفعل هذا المجتمع الدولى باسم الأمم المتحدة وبزعامة الدولتين الكبيرتين ، وفى ظل حسابات لدى كل منهما ، بأن تكون الدولة الصهيونية الوليدة على الأرض العربية حليفا لها أو أداة للنفاذ إلى بعض أغراضها ولكن الذى فاز بولاء الدولة الصهيونية كاملا كان هو الولايات المتحدة الأمريكية التى أغدقت عليها ما لم يغدقه عليها أحد فى العالم ، بل ولا يستطيع أن يغدق عليها مثله أحد . كان يحلو لبعض الكتاب الأمريكيين أن يصوروا إسرائيل بأنها أمريكا الصغرى وأمريكا بأنها إسرائيل الكبرى . ساعد على ذلك تمتع الجالية اليهودية الخزرية الأصل فى أمريكا بنفوذ هائل فى دوائر المال والصناعة ، والفكر والإعلام والدعاية على السواء . واكتسب النفط العربى الذى تفجرت موارده فى أكثر من قطر من أقطاره أهمية دولية بالغة ، وأصبحت المنطقة العربية منطقة مصالح رئيسية من وجهة النظر الأمريكية ، باعتبارها مخزن النفط الأكبر فى العالم ، بكل مالتلك السلعة من أهمية سواء فى الأغراض العسكرية أو المدنية بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية وحليفاتها فى غرب أوربا وفى اليابان ، مصالح أوسع كثيرا وأكبر أهمية من لزوم القطن

المصرى للمصانع البريطانية . وإذا كان الحفاظ على هذا القطن قد كلف بريطانيا – إلى جانب الأغراض الاستراتيجية – إعالة جيش احتلال بريطانى فى مصر ، بلغ أقصى عدد له ثمانين ألف جندى ، لمدة تزيد على سبعين عاما ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية ، قد وجدت ، أو بالأحرى جعلت من الجيش الصهيونى جيش احتلالها الدائم فى المنطقة ، بل إن الدولة الصهيونية فى مجموعها لا تزيد على أن تكون هى هذا الجيش مع عائلات أفراده . وإذا كان الجيش البريطانى مسرح مسئوليته هى مصر وحدها ، فان مسرح عمليات الجيش الاسرائيلى هو المنطقة العربية بأسرها ، حيث يقول قادته العسكريون إن أمن إسرائيل يمتد من طنجة إلى بغداد ، أى من الخليج إلى المحيط ، حيث كنا نتحدث ، أو نتغنى بساحة قوميتنا العربية !

الهزيمة لكل العرب

المشروع الصهيونى إذن ، هو المقابل الذى أعدته القوى الاستعمارية لإعادة رسم خريطة المنطقة بعد زوال الدولة العثمانية ، فى مقابل المشروع العربى الذى كان يعتمل فى ضمير مصر من أيام

محمد على ، وربما على بك الكبير ، قبل أن تبدأ مرحلة الغزو الأوربى بالحملة الفرنسية . وبعد أن نجحت مصر فى التخلص من الاحتلال البريطانى ، ارتبطت لديها ، ولدى الضمير العربى على ساحة شاسعة ، فكرة صد المشروع الصهيونى بالتوحد العربى ، على صورة من الصور ، لا تزال كلها غامضة حتى الآن .

والغزو الإسرائيلى للبنان فى صيف العام المنصرم ، لم يكن مجرد هزيمة لمنظمة التحرير الفلسطينية بإجبارها على الجلاء عن عرب بيروت ، بل ربما كان هذا الموقف بالنظر إلى حجم المنظمة وعدد مقاتليها نوعا من الانتصار المعنوى لمنظمة التحرير ، أن تصمد وحدها طوال كل المدة شهرين ، أو أكثر ، هى وعدد محدود من القوى اللبنانية ، المدنية أساسا ، تحت الحصار والقصف الوحشى المتواصل بجميع الأسلحة .

الهزيمة كانت للعرب جميعا الذين عجزوا عن مد يد المساعده وفك هذا الحصار ، ودحر العدو الغازى على أعقابه ، وانتصر الكيان الصهيونى بكل ما يمثله ، والقوى التى تقف وراءه ويعمل فى خدمتها فى آن معا على « النظام العربى » الذى هو حتى الآن نظام التفرق إلى دول أو دويلات ، تجمعها رابطة شديدة الوهن ، هى جامعة الدول العربية .

ويعمد المشروع الصهيونى فى سبيل بسط هيمنته على المنطقة العربية ، إلى إحاطة ذاته بأكبر عدد ممكن من الكيانات الطائفية المتناحرة ، وخاصة فى منطقة الشام ، التى كانت هى فى أواخر عهد الدولة العثمانية أتون احتدام الثورة العربية ، من الناحيتين الفكرية والسياسية ، ومعمل التفريخ الأيديولوجى لمذهب القومية العربية ، ربما أكثر من مصر ، التى كانت العروبة بالنسبة لها قضية مضافة إلى قضية التحرر الوطنى لإقليمها الأكبر حجما ووزنا بالقياس إلى أى كيان عربى اخر .

وبناء عليه فإن التصدى للمشروع الصهيونى ، إنما يكون على المدى التاريخى بنشر المشروع القومى من جديد ، وبعثه من مرقده ، وذلك على جميع المستويات الفكرية والسياسية والجماهيرية ، بما فى ذلك احتمال التوصل إلى صيغة للاقتصاد الموحد حيث الثروات العربية مبددة تماما بقدر ما هى طائلة ، وصيغة أخرى للتوحد السياسى . ومن نافلة القول أن هذه الصيغة الأخيرة لابد وأن تتجاوز فكرة جامعة الدول العربية ومؤتمرات القمة وما إلى ذلك ، فهذه الجامعة وتلك المؤتمرات ، لم يكن لقراراتها فى يوم من الأيام صفة الإرادة الواحدة ، إلا بالصدفة ، وأقصى ما أمكنها التوصل إليه على

سيل الإلزام ، هو بتر عضو هو بالصدفة أيضا أو بتضافر الظروف ، لكى يكون كذلك ، أكبر الأعضاء وأهمها وأعنى به مصر .

ولكى نصل إلى صيغة للتوحد السياسى العربى ، تكون لها قوة الإلزام ، ينبغى أن يكون المبدأ ديمقراطية اتخاذ القرار حتى تكون له هذه الصفة ، حتى يتحول المجلس العربى الأعلى ، الذى يكون من حقه ومن سلطاته اتخاذ هذا القرار ، إلى ما يشبه الكونجرس الأمريكى على سبيل المثال ، وذلك يتطلب بالدرجة الأولى الاستيقاظ فكريا وسياسيا فى المجتمعات العربية ، حتى يكون قبولها لتلك الصيغة بإرادة حرة ، استجابة لضرورات الواقع العربى الملح ، وحتى لا يكون للمشروع الصهيونى ، والقوى الدولية التى تقف من ورائه ، اليد العليا فى المصير العربى .

* * *

٦ – كيف يستفيد العرب من النقيض العلمي لهرتزل ؟ (*)

إذا صح قول القدماء : « إنه لا يحيا كتاب حتى يموت صاحبه » ، فإن من أولى الناس بأن يحيا كتابه بعد موته ، الكاتب البريطاني الجنسية ، المجرى الأصل ، الذى انتحر هو وزوجه منذ أسابيع فى لندن ، بسبب يأسهما من الشفاء من المرض العضال . أما الكاتب فهو آرثر كوستيلر ، أما كتابه الذى يستحق الحياة من بعده ، فهو : « القبيلة الثالثة عشر أو إمبراطورية الخزر » .

ولد آرثر كوستيلر فى بودابست عاصمة المجر ، فى عام ١٩٠٥ ، بعد عام واحد من موت تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية ، وتلقى تعليمه فى فيينا عاصمة النمسا التى نشأ فيها هرتزل ، وكانت المجر والنمسا امبراطورية واحدة قبل الحرب العالمية الأولى . وكلا الرجلين ينتمى إلى ذات الجنس والعقيدة ، فهما من « يهود » شرق أوربا الذين ينحدرون من أصل « خزرى » وكلاهما قد اشتغل بالصحافة والسياسة

(*) نشرت بمجلة الهلال فى مايو ١٩٨٣.

وتأليف الكتب . وإذا كان كتاب هرتزل « المسمى » « الدولة اليهودية » قد عاش بعد موته وصار « إنجيلا » للحركة الصهيونية حتى تم لها الاستيلاء على فلسطين بمساعدة القوى الاستعمارية فى العالم ، فان كتاب كوستيلر هو « إنجيل مضاد » ، يصلح أساسا لنقض الفكرة الصهيونية من أساسها ، على نحو علمى راسخ لا يصمد أمامه أى قدر من الجعجعة السياسية الفارغة ، التى اعتمدت عليها الصهيونية ، إيمانا من مؤسسها هرتزل بالدور الهائل الذى تلعبه الدعاية ، فمهما أتيح لها من انتشار ، أو توفر لديها من وسائل ، فعلى حد تعبير مثلنا الشعبى الدارج : « الكذب ليس له قدمان .·. » يثبت عليهما !

لقد بنى هرتزل دعواه ، على أساس أن اليهود يشكلون أمة واحدة ، « مشتتة » فى أرجاء العالم ، وهم لذلك مضطهدون طبقا لسياسة « معاداة السامية » فى أوربا المسيحية ، وأن خلاصهم فى تجمعهم ، وتحير أين « ينشئ » لهم هذه الدولة : فى الأرجنتين ، فى أوغندا ؟ حتى استقر أنصاره على فلسطين ، بدعوى أنها « أرض إسرائيل التاريخية » ؟!

ومؤدى كتاب كوستيلر يقول لهم بوضوح ، ليهود أوربا وأمريكا بصفة خاصة وهم أغلبية يهود العالم ، « للمستوطن اليهودى » الكبير فى شرق أوربا الذى نشأت فيه الحركة الصهيونيةوأتى منه زعماؤها والقوة البشرية الأساسية لها : « قد تكونون بالفعل أمة واحدة ، ولكنكم لستم بنى إسرائيل ، ولا أرض إسرائيل أرضكم ، إنما أنتم أمة أخرى نسبكم غير ما تنتسبون إليه وأرضكم غير أرضها .. أنتم أمة الخزر التى غبرت فى التاريخ ، وها هو ذا تاريخها مبسوط أمامكم ! » وتبدأ السخرية المرة من دعاوى الصهيونية من عنوان الكتاب : « القبيلة الثالثة عشر » ! فمن المعروف أن إسرائيل نبى الله كان له اثنا عشر سبطا فقط هم المذكورون بأسمائهم فى التوراة – كتاب اليهود – فمن أين جاءهم ذلك « الدعى » الثالث عشر ؟! بكل ما يحمله هذا الرقم من « شؤم » متعارف عليه لدى الأوربيين من يهود ومسيحيين ؟

يقول كوستيلر : « نصادف فى أواخر القرون الوسطى مستوطنات الخزر فى القرم وأوكرانيا وهنغاريا وبولنده ولتوانيا ، ونخرج من ذلك بأنه حدثت هجرة للقبائل والجماعات الخزرية إلى أقطار من شرق أوربا وخاصة روسيا وبولنده ، حيث نجد فى مطالع العصر

الحديث أعظم تجمعات اليهود وقد حمل هذا طائفة من المؤرخين على الذهاب إلى أن فريقا لا يستهان به من اليهود الشرقيين « أى من شرق أوربا » ، وربما كان معظمهم « ومن ثم يهود العالم » هم من الخزر وليسوا من أصل سامى ! »

ويضيف : « ما مبلغ الأهمية من الناحية العددية لوجود أبناء يافث القوقازيين فى مضارب سام ؟ الحق أن من أهم الداعين إلى النظرية القائلة بأن الخزر هم أصل الشعب اليهودى هو بولياك أستاذ تاريخ اليهود فى القرون الوسطى بجامعة تل أبيب . فقد جاء فى كتابه عن بلاد الخزر الذى كتبه ونشره فى تل أبيب عام ١٩٤٤ ، ثم أعيد نشره سنة ١٩٥١ قوله : إن الوقائع تتطلب تناول الموضوع من زوايا جديدة من حيث مسألة العلاقة بين شعب اليهود الخزرى والجماعات اليهودية الأخرى ، ومن حيث مسألة : إلى أى حد نذهب إلى اعتبار هذا الشعب اليهودى الخزرى نواة المستوطن اليهودى الكبير فى أوربا الشرقية ، والنازلون بهذا المستوطن ، سواء استقروا حيث كانوا أو هاجروا إلى الولايات المتحدة أو إلى غيرها من البلاد ، فإنهم الآن هم الأغلبية الكبرى للشعب اليهودى فى العالم . »

« وقد كتب هذا – أى بولياك – قبل أن يعرف مدى المذبحة التى نزلت باليهود ولكن ذلك لا يغير من الواقع الذى يفيد أن الأغلبية الكبرى من اليهود الذين بقوا من هذه المذبحة فى هذا العالم من الأوربيين الشرقيين ، ومن ثم فلعلهم فى معظم الحال من أصل خزرى ، وإذا كان الامر كذلك فإن معناه أن اجدادهم لم يقدموا من الأردن بل من الفولجا ، ولم يجيئوا من كنعان بل من القوقاز الذى قيل فى يوم من الأيام إنه مهد الجنس الآرى ، وأنهم من حيث الأرومة أقرب رحما لقبائل الهون والأوريغور منهم لذرية إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وإذا تحقق هذا فإن القول بالعداء للسامية يصبح خاليا من المعنى » .

هذا هو بعض كلام كوستيلر فى الترجمة المختصرة لكتابه التى أعدها الأستاذ إبراهيم زكى خورشيد ونشرتها دار المعارف . ولقد نضيف إليه هنا أن علماء اليهود يعرفون تماما الأصل الخزرى ليهود أوربا وأمريكا بصفة عامة ، وذلك حينما يطلقون عليهم اسم اليهود الأشكنازيم . فما أشار إليه بولياك ونقله عنه كوستيلر من وجود « أبناء يافث القوقازيين فى مضارب سام » ، هو النسب الصحيح لهؤلاء القوم فى التوراة لدى علماء اليهود ، وهم أنهم أبناء أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح ، وليسوا من سلالة سام بن نوح الذى أتى

منه بنو عابر ثم سلالة الأنبياء إبراهيم وإسحق ويعقوب أى إسرائيل عليهم السلام . أما وجودهم فى « مضارب سام » ، فهو ادعاؤهم – بالدخول فى الديانة اليهودية – الانتساب إلى بيت إسرائيل والجنس السامى .

هل هناك دليل أوضح من هذا على أن اليهودية ديانة وليست قومية ؟ ديانة أغلبية معتنقيها ليسوا من بيت إسرائيل ولا من الجنس السامى أصلا ؟ لذلك كانت معارضة حاخامات أوربا فى الأصل للحركة الصهيونية عند بدئها ، إنها لا تعنى أبدا عودة أبناء إسرائيل إلى أرضه ، ولكن غزو تلك الأرض من جانب أدعياء إسرائيل فحسب ، بالانتساب إلى ديانته ، فإذا كان القائمون على تلك الحركة علمانيون لا يؤمنون بديانة فأى صلة تربطهم إذن ببيت إسرائيل وأرضه ، سوى الأطماع الشرسة التى يسخرون من أجلها عقيدة الجماهير اليهودية التى تستجيب لتحريضاتهم ؟ بل إن عبارة « معاداة السامية » التى استغلوها فى نشر الفكرة الصهيونية لا تكون خالية من المعنى فحسب ، بل تكتسب معنى جديدا ، هو بالتحديد عداوة الصهاينة للسامية ، لأن اغتصابهم أرض فلسطين بالمكر والخداع والدسيسة والقتل والفتك الاجراميين ، إنما كان بإيقاع

كل صنوف التعذيب والاضطهاد على الجنس السامى الحقيقى الذى يعيش فى أرضها ، للسلالة الحقيقية من أبناء إبراهيم ، من شعب فلسطين العربى ، الذى تجرى فى عروقه دماء ولديه إسماعيل وإسحق على السواء . ما أظن التاريخ شهد جريمة أكثر دناءة من هذا !

ويمضى كوستيلر فى شرح تاريخ الدولة الحقيقية التى انحدر منها هؤلاء الخزر ، إنها دولة خزريا ، التى قامت ما بين نهرى الفولجا والدانوب ، وبحر قزوين والبحر الأسود ، وكل منهما كان يعرف لدى بعض الجغرافيين باسم بحر الخزر ، وهى مساحة من الأرض شاسعة تشمل جنوب روسيا حاليا والقرم وشطرا من شرق أوربا ، وهى أكبر كثيرا من فلسطين ، أو أرض إسرائيل فى دعواهم ، وتماسكت — على حد تعبير كوستيلر — فى التاريخ « الشطر الأكبر من قرون أربعة » ، بينما لم يدم ملك داود وسليمان فى فلسطين أكثر من ٧٣ عاما ، ولا شك أن عدد سكانها كان أكبر من سكان مملكتى إسرائيل ويهوذا الواردتين فى التوراة أضعافا مضاعفة . وبعض المؤرخين يقدرون نسبة يهود الخزر الحاليين بأكثر من ٩٠٪ من يهود العالم . ودائرة المعارف اليهودية تذكر أن يهود الخزر قد انتشروا حتى وصلوا إلى الأسكندرية فى مصر . مما يعنى أيضا أن شطرا كبيرا من اليهود الشرقيين هم من ذلك الأصل الخزرى ذاته .

الملك الحقيقى الذى فقده يهود العالم أو أغلبيتهم ، لم يكن ملك داود وسليمان فى فلسطين ، بل كانت دولة الخزر ، التى كانت هى القوة الثالثة بين الدولة العباسية الإسلامية ، ودولة بيزنطة المسيحية أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وقد تم تحول هذه الدولة إلى اليهودية فى ذلك العهد ، فى عهد هارون الرشيد وشارلمان ، أى بعد اندثار إسرائيل التوراتية بأكثر من عشرين قرنا ، وبعد ظهور المسيحية ثم الإسلام ، وتم هذا التحول على يد « الخاقان بولان » ملك الخزر ، الذى خشى على ملكه من الضياع بتحول أفراده إلى المسيحية أو الإسلام ، ثم تبعه « عبديه » ، الذى قرر ألا يتولى ملك الخزر إلا من يعتنق اليهودية فتبعه « البلاط الملكى » ، ثم تابعهم معظم شعب الخزر فيما بعد . ويتباهى بعض مؤرخى اليهود بأن الخزر كفوا عن أن يبيعوا أبناءهم فى سوق الرقيق بعد أن تحولوا إلى اليهودية ! على أن الهمجية لم تفارق بعد هذا الجنس الغريب ، فما يفعلونه الآن فى فلسطين لا يقل بشاعة – إن لم يزد – عن بيع أبنائهم فى سوق الرقيق !

ولم يكن ضياع ملك الخزر نكبة خاصة حلت بهذا الشعب دون سواه . فالغزو التترى اجتاح تلك المنقطة كلها ، وعلى أنقاض

ملك الخزر قامت دولة القبيل الذهبى التترية على ضفاف الفولجا أيضا وكانت عاصمتها فى الشمال وتدعى قازان ، ولكن القضاء التام على دولة الخزر كان بظهور الأمراء الروس واعتناقهم المسيحية وتحالفهم مع بيزنطة ضد الخزر ، حتى قضوا على ملكهم فى إتل عاصمة الدولة الخزرية عند مصب الفولجا « الذى كان يدعى أيضا نهر إتل » ، ثم على بقايا ملكهم فى القرم . والأمراء الروس هم الذين أعطوا تلك الاصقاع كلها اسم روسيا بعد ان نجحوا فى طرد التتار ، وظلت كذلك حتى الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ، التى أعطت البلاد كلها اسم الاتحاد السوفييتى .

فما أصاب الخزر إذن لا علاقة له بشتات بنى إسرائيل المذكورين فى التوراة . وإنما هو جزء من التقلبات السياسية التى عرفتها تلك المنطقة فى شرق أوربا عند اتصالها بالسهوب الآسيوية الفسيحة . وما أصاب الخزر من الاضطهاد فى ظل سياسة الترويس التى اتبعها القياصرة الروس إنما هو جزء من سياسة الاضطهاد الدينى والعنصرى التى اتبعوها ضد كل مخالفيهم فى الجنس أو العقيدة سواء كانوا من التتر المسلمين أو الخزر اليهود أو المسيحين الأوكرانيين والبولنديين . بل إن الخزر اليهود كانوا

أحسن حظا من سواهم ، حيث أتيح للغالبية العظمى منهم أن تهاجر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث يشكلون الآن الجالية اليهودية الكبرى فى العالم ، ويسيطرون على كثير من مقاليد الأمور فى تلك الدولة الكبرى ، عن طريق سيطرتهم على دوائر المال والصناعة والإعلام فى داخلها وخارجها .

ليست الغزوة الصهيونية إذن لفلسطين وللبلدان العربية المجاورة لها ، « عودة لشعب إسرائيل إلى أرضه » ، تلك أكذوبة وقحة يفضحها كتاب كوستيلر تماما . السبط الثالث عشر [١] ، أى أغلبية يهود العالم ، إنما هو شعب غريب تماما عن المنطقة العربية ، المسماة حاليا فى قاموسهم السياسى بالشرق الأوسط ! هو جزء من الشعوب الأوربية الآسيوية « الآرية » ، ذو « أرومة تركية » ، كما يقول كوستيلر ، وقد اختلطت وتداخلت وتنافرت وتنازعت فيما بينها ،

---

(١) تلك هى الترجمة الأدق لعنوان كتاب كوستيلر ، أدين فيها بالفضل للدكتور إحسان عباس .

واستخدمت « الأديان » المنزلة فى المنطقة العربية رايات لمنازعاتها وحروبها واضطهاداتها المستمرة باسم الدين تارة والقومية والجنس تارة أخرى . وعلاقة الخزر باليهودية ليست كونهم « الجنس اليهودى » ، أو العنصر السامى « ! » داخل أوربا ، أو شيئا من هذا القبيل ، بل هى مثل علاقة جميع الشعوب التى ينتمون إليها بأديان المنطقة العربية سواء بسواء ، بل إنهم دخلوا فى اليهودية متأخرين عن دخول معظم الأوربيين فى الديانة المسيحية ، وقبل وبعد دخول معظم الترك والتتر وكثير من الخزر أنفسهم فى الإسلام ! حتى لتقول بعض مصادرنا العربية مثل ابن الأثير إن خاقان الأكبر ملك الخزر اعتنق الإسلام أولا فى عهد هارون الرشيد ، قبل أن يعلن أحد خلفائه اعتناق اليهودية !

وعلى ذكر المصادر العربية فقد أشار كوستيلر إلى كثير من المؤرخين العرب كمصادر له ، مثل أبى سعيد المغربى ، والاصطخرى ، وابن فضلان . ذلك أيام كانت هذه الأمة العربية تحمل مشعل الحضارة والثقافة وتعى وجودها وما حولها ، وقبل أن تصير أمور الفكر فيها أحيانا والسياسة حينا إلى غافلين عن ماضيهم وحاضرهم والكوارث التى تهدد مستقبلهم ، بحيث صاروا يرددون

عبارات أعدائهم المغتصبين لأرضهم ، عن « معاداة السامية » وأن اليهود الذين تجلبهم الصهانية هم « أبناء عمومة العرب » ، وغير ذلك من السخف الذى يروجه الفكر الصهيونى ، كما يروج أسطورة انتمائه إلى « الشعب المختار » المذكور فى الكتاب الدينى الأول الذى ظهر فى هذه المنطقة منذ حوالى ثلاثين قرنا .

إن من المهام الأولى حاليا للفكر العربى وللسياسة العربية ، أن تضع كتاب كوستيلر ، وأمثاله من البحوث العلمية الجادة حول هذا الموضوع ، موضع الشمس من الظلمة والعفن الذى تفرضه الصهيونية بوسائلها الواسعة النطاق على عقول البشر ، بمن فيهم بعض العرب أنفسهم ! وليس ذلك إنصافا لكوستيلر بقدر ما هو إنصاف للعرب .

وأول من ينبغى علينا أن نقيهم من دسائس الصهيونية وأكاذيبها هم ناشئة العرب أنفسهم . فتدريس التاريخ فى معاهدنا العلمية العربية ، ينبغى أن يشمل تدريس الغزو الخزرى ، باعتبارهم أمة حاربت العرب واختلطت بهم فى الماضى فى أيام الدولتين الأموية والعباسية ، وهى التى تمارس غزو بلادهم فى الحاضر تحت راية

الصهيونية ، مثلما غزاها « الإفرنج » فى « قرونهم الوسطى » ، تحت رايات الصليبية ، وفى العصر الحديث تحت مختلف الرايات الاستعمارية . بل إن الغزوة الصهيونية الخزرية المعاصرة هى أخبث تلك الغزوات جميعا ، وأشدها خطرا على الكيان العربى والإسلامى ، بما فى ذلك مجرد الوجود البشرى ذاته للعرب وللمسلمين . فتحت راية الأسطورة يحشدون فى غزوتهم ، أقوى وسائل الفتك « التكنولوجية » ، معتمدين فى ذلك على أبناء جلدتهم المسيطرين على أقوى دول العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى تحالف مع أصحاب السطوة والمصالح الاستعمارية فيها بكافة ، وعلى الجانب المقابل من العالم ، يستجلبون « المستوطنين » من اليهود « الأشكنازيم » ، من ذات المعين الذى خرجوا منه جميعا ، القوقاز الروسى الذى يتبع الاتحاد السوفييتى خاليا ، والمستوطن اليهودى الكبير فى شرق أوربا على حد تعبير كوستيلر . ولهم فى تلك المجتمعات ألوان من النفوذ لا تقل فداحة عن نفوذهم فى المعسكر الغربى ، فنصف علماء الاتحاد السوفييتى هم من يهود الخزر ، ولهم هنالك عالمهم السفلى من التجارات الخفية والثروات السرية ، وهم على صلة عضوية لم تنقطع مع أبناء جلدتهم سواء فى الولايات

المتحدة الأمريكية ، أو « خزريا » الجديدة ، التى فرضوها على بلادنا باسم دولة إسرائيل .

ومن وراء ذلك كله تحشد الصهيونية الدولية ، كل الأحقاد الصليبية فى العالم ، لكى تحقق بتأييدها العالمى ، ما فشلت تلك الأخيرة فى تحقيقه فى الماضى ! يستوى فى ذلك البروتستانت ، الذين يعتقدون أن المسيح سوف يعود إلى الظهور فى أرض إسرائيل حينما يعود شعبها المشتت إليها ، والكاثوليك الذين أعلنت كنائسهم من سنوات قليلة تبرئة اليهود من دم المسيح ، إيذانا بالتعزيز الأدبى الذى تمنحه تلك الكنائس لعودة شعب إسرائيل إلى أرضه ؟! إلى هؤلاء وأولئك على الفكر العربى ووسائل الإعلام العربية كشف الحقيقة التى أعلنها كوستيلر ، وهى أن « نقبهم على شونة » إذا كانوا يحلمون بأن غزو الخزر للأرض العربية يمكن أن يعيد إسرائيل إلى أرضه ، فقد اندثر هذا « الشعب المختار » طبقا لعقائدهم منذ قرون متطاولة ، وأن « مسيحهم المنتظر » لن يظهر فى أرض تدنسها أقدام الهمج الغزاة من الخزر الذين يكذبون على أنفسهم وعلى العالم حينما يصكون اسم إسرائيل على دولتهم ، بينما هم فى واقع الامر لا ينشئون إلا خزريا جديدة فى الأرض العربية ، إسرائيل النبى وبنوه الحقيقيون أبرياء منهم

ومن أفعالهم ، إلا من ظلم نفسه ، والحقيقة منهم ، وسار فى ركاب الهمج المغامرين !

إن فى وسع العرب ، لو أحسنوا استخدام مواردهم ، وهى طائلة ، وصلاتهم الدولية ، وهى وثيقة متعددة ، أن يصكوا على أسماء العالم كلمة « الخزر » بدلا من اليهود ، « وبنى أشكناز » بدلا من بنى إسرائيل ، علما حقيقيا على غزاة بلادهم من الصهاينة الأدعياء . يستطيع العرب أن يثيروا الجانب العلمى الموضوعى للقضية فى المحافل الدولية ذات العناية ، كاليونسكو على سبيل المثال ، وأن يحرروا طائفة كبرى من الشعوب الصديقة ، كشعوب العالم الثالث وعدم الانحياز ، ويحصنوها ضد ما قد يتسلل إليها من تصديق لدعاوى الصهيونية . بل إن التأثير يمكنه أن يمتد إلى صفوف العدو الصهيونى ذاته ، حينما يعرفون أن الناس فى كل مكان يعرفون حقيقتهم ، يمكن اجتذاب الشرفاء من أفرادهم ، من الخزر فى الدولة الصهيونية وخارجها إلى التسليم بالحقيقة والإقرار بحجم المغالطة التاريخية التى قامت عليها تلك الحركة العدوانية ، وعلى الأقل إنهاك معنويتهم بالكشف المستمر لزيف دعواهم على أساس شهادة الشرفاء منهم أمثال كوستيلر ، وألفريد ليلنتال وسواهم .

وأهم من ذلك كله أن يتماسك الفكر العربى فى داخله ، وأن يتحصن ضد الغزو الصهيونى من الناحية الفكرية ، حتى يستطيع تنظيم صفوفه من أجل وقف العدوان على الأرض والشعوب العربية ، بما يجلبه هؤلاء الخزر من مستوطنين جدد ، فى كل يوم ، من أبناء جلدتهم . ويلزموا الصهاينة ومن يساندونهم أو يسهلون لهم عدوانهم المستمر الحجة فى انعدام أى وجه معقول أو مقبول لما يفعلون ، فمشكلة هؤلاء الخزر هى فى بلادهم الحقيقية وحلها ينبغى أن يكون فيها ، ولم تعد هنالك بالفعل مشكلة لهم حيث انتفى اضطهادهم سواء فى الأصقاع التى جاءوا منها أو نزحوا إليها فى أوربا وأمريكا ، بل أصبحوا هم المعتدين والمضطهدين لشعوب سواهم . لم يكن لهم من جناية عليهم سوى أنهم علموهم بعض ما أفرزته حضاراتهم التاريخية ، فانتضوا منه سلاحا يطعنونهم به ، فى واحدة من أكبر مآسى التاريخ والحضارة الانسانية خزيا ووحشية .

* * *

٧ – أرستقراطية العالم السرية : الخزر الأشكناز

تناولت فى أكثر من مقال « للهلال » قضية اليهود الخزر ، الذين يدعون النسبة إلى « إسرائيل » ، وهم فى حقيقة الأمر – أو عند علماء اليهود على الأقل – أبناء أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح ، ولا تربطهم بإسرائيل النبى صلة ، إلا من حيث اعتناق الديانة المنسوبة إليه . ونزوجهم إلى أرضه – إلى أرض فلسطين ليس إلا غزوا همجيا لا يقوم على أى أساس تاريخى معقول . وتناولت إلى جانب ذلك الموضوع مواضيع أخرى قد لا تبدو وثيقة الصلة به ، مثل قضية السؤال عن الثورة العالمية الجديدة : ضد من ؟ [1] حيث تقوم فى كلا المعسكرين : المعسكر الاشتراكى والمعسكر الرأسمالى أوضاع تستدعى الثورة عليها ، مثل إهدار القوى والموارد الانتاجية الهائلة فى التسليح ، بدلا من رفع مستوى الشعوب والطبقات العاملة ، ونزعات الاستبداد والتسلط من جانب القوى الحاكمة أو المالكة فى واقع الأمر ، وما تذهب إليه بعض الدراسات الحديثة من

(*) نشرت مجلة الهلال فى يونيو ١٩٨٣ .

(١) انظر المقال المذكور رقم ١٨ وما يليه .

وجود ضرب من « التواطؤ » بين القوى السائدة فى كلا النظامين ، بدليل وجود علاقات وثيقة بينهما من الناحية الاقتصادية ، رغم الصراع السياسى الظاهر على السطح .

ولقد أصل هنا بين بعض الخيوط المبعثرة فيما سبق من مقالات ، وذلك بما علمته فى رحلتى إلى بولندا فى الخريف المنصرم ، عن اليهود « الخزر » هناك ووضعهم فى المجتمع البولندى .

ومن المعلوم أن بولندا كانت مهدا رئيسيا للحركة الصهيونية ، وموطنا أصّليا لكثير من قادة الدولة الصهيونية القائمة فى فلسطين من أمثال مناحم بيجن وآرييل شارون . هناك – فى بولندا – علمت أن لليهود نفوذا كبيرا فى المجتمع البولندى الذى تدين غالبيته بالديانة المسيحية الكاثوليكية فمنهم عدد كبير من الكتاب والفنانين وقادة الرأى عبر التاريخ البولندى كله . ولكن دورهم من الناحية السياسية ، كان شديد الخطر ، غريب الأطوار .

كثيرا ما تشير الدعاية الصهيونية إلى المذابح التى أوقعها هتلر ، باليهود فى بولندا ، وتدمير « الجيتو » الرئيسى لهم فى وارسو ! ولكن بعض من قابلتهم فى بولندا ، ذكروا لى أن « اليهود » كان لهم

موقف عجيب إزاء الغزو الهتلرى لبولندا ، حيث أعلنوا أن « عقيدتهم » تمنعهم من القتال وحمل السلاح !! « تلك العقيدة ذاتها لم تمنعهم من حمله فى فلسطين والعالم العربى على نحو فاجر لم يسبق له مثيل » . ذلك إذن ضرب من النفاق الصهيونى لم يسبق له وصف ، فيه كل الجبن وكل الخسة إزاء الاقوياء « مثل هتلر » ، وكل التجبر وكل الاستعلاء إزاء « الضعفاء » ، أو من يلمسون فيهم ضعفا ، مثل شعبنا العربى فى فلسطين ،ومجموع أمتنا العربية على حالتها الراهنة من التفكك والخذلان !

وبناء على ذلك الموقف الجبان ، الذى اتخذه يهود بولندا برفض القتال ضد هتلر ، تظاهر عدد كبير منهم بالانتساب إلى الحزب الشيوعى البولندى ، وطلبوا إلى الاتحاد السوفييتى أن يحميهم من الإبادة عن طريق اللجوء إليه بأعداد كبيرة ، ثم عادوا بعد اندحار هتلر وجلاء قواته عن بولندا فى صحبة القوات السوفييتية « المحررة » ، ليصبحوا هم حكام بولندا ، باعتبارهم هم عمد النظام « الشيوعى » فيها والقادة الرئيسيون فى الحزب الحاكم ! ومما لا شك فيه أن هذا الوضع ومثيله فى عدد من الدول الاشتراكية فى شرق أوربا « حيث يقوم المستوطن اليهودى الخزرى الكبير » ، كان وراء التساهل

غير المبدئى من جانب الاتحاد السوفييتى فى قضية فلسطين ، عند عرضها فى الامم المتحدة فى الأربعينات ، حيث أيد قرار التقسيم ، بما يسمح بإقامة دولة « يهودية » فيها ، لا تجمع بين أهلها إلا رابطة العقيدة وحدها ، على النقيض تماما من كل ما تنادى به الماركسية والاتجاهات الاشتراكية ، والديمقراطية عموما ، من علمانية الدولة !

نعود إلى يهود بولندا : الذين حكموها بعد الحرب العالمية الثانية ، ونسأل : هل كان حكمهم لتلك البلاد ، وسواها فى أوربا الشرقية اشتراكيا حقيقيا ؟ الشواهد كلها تقول غير ذلك ، بل تقول إنهم فى ظل « الملكية العامة لوسائل الإنتاج » ، باسم الاشتراكية ، قد جعلوا من أنفسهم « طبقة جديدة » ، فوق المجتمع ، تتمتع بمستوى من العيش ، يفوق كثيرا مستوى الطبقة العاملة التى يحكمون باسمها ! لذلك شهد النظام البولندى ، وما يزال يشهد كثيرا من الاضطرابات العمالية . وعلى إثر واحدة من تلك الاضطرابات واسعة النطاق ، اضطر الحزب الشيوعى الحاكم إلى القيام بحملة تطهير واسعة النطاق شملت عددا كبيرا من اليهود الذين يشغلون مناصب رئيسية فى الحزب وفى الدولة ويعطون « لذواتهم » امتيازات غير معقولة فى مجتمع يوصف بالاشتراكية . وترتب على

ذلك – كما قال لى بعض الدبلوماسيين هناك – أن كثيرا من البولنديين البسطاء ، أصبحوا يكرهون الشيوعية واليهود معا ، لاعتقادهم أن اليهود هم الذين أدخلوا الشيوعية وسخروها لمصالحهم الخاصة !

وأصحاب الوعى السياسى وحدهم – فى صفوف البسطاء – هم من يفرقون بين صلاحية النظام الاشتراكى من حيث هو نظام اجتماعى ، وبين الممارسات الخاطئة فيه على يد الطبقة الجديدة ، وحلفائها أو أقربائها فى الخارج ، فى العالم الرأسمالى ذاته .

لقد أشرت فيما سبق من مقالات إلى أن الغالبية العظمى من يهود الولايات المتحدة الأمريكية – كبرى الجاليات اليهودية فى العالم – قد جاءوا من ذات الجنس « الخزرى » فى القوقاز الروسى وشرق أوربا ، وهم هناك أصحاب السطوة الهائلة فى دوائر المال والصناعة والإعلام ، ولا شك أن لهم وجودا رئيسيا فى الشركات العابرة للقارات المتعددة الجنسيات ، التى تقود التطور الصناعى فى العالم ، وتتحكم فى الغالبية الكبرى من أسواقه .

وعن بولندا أيضا ، أقرأ حاليا كتابا عنوانه « صراع الطبقات فى مجتمع غير طبقى » « تأمل العنوان ودلالته » ، ومنه علمت كيف عمدت تلك الشركات المتعددة الجنسيات فى الخارج إلى إفساد روح الاشتراكية فى بلد مثل بولندا ، من ذلك مثلا أن شركة فيات ، التى أقامت خطا لتجميع سياراتها فى كل من الاتحاد السوفييتى وبولندا ، قد عمدت فى ظل التواطؤ مع « الطبقة الجديدة » فى بولندا ، وتخطيطها الفاسد ، إلى إنتاج أكثر من مليونين من سيارات الركوب الخاصة الصغيرة ، ليركبها أفراد تلك الطبقة – الكبار منهم هناك يركبون المرسيدس – وأعوانها ، فى الوقت الذى تعانى فيه جموع الشعب البولندى من تدهور حال المواصلات العامة وازدحامها . وأظن أن القارىء المصرى سوف تقفز إلى ذهنه عند قراءة هذه السطور مقارنة حادة مع الوضع عندنا ، الذى تم أيضا على يد شركة فيات العالمية ، و« التخطيط » المفرط فى السوء عندنا فى العقدين الماضيين ، باسم الاشتراكية أيضا ، فى إحدى مراحله ، ثم « الانفتاح » فى مرحلة تالية !

يروى الكتاب المذكور كيف أن زوجات العمال المضربين ، الثائرين على رفع أسعار المواد الغذائية ، فى إحدى الثورات التى

شهدها المجتمع البولندى قمن بغزو بيوت المسئولين عن تطبيق الاشتراكية فى بولندا : لم تمتد أيديهن إلى شئ بالنهب أو التدمير ولكنهن كن يكتفين بالتجول فى أرجاء تلك البيوت ، كأنهن فى متاحف ! يسرحن النظر فيما حولهن من مظاهر البذخ و « البغددة » من تحف ورياش وأدوات ، بين نظرات الاستخذاء والرعب والخزى ، التى سادت عيون أولئك المسئولين وعائلاتهم ، لافتضاح أمرهم ، وزيف دعواهم فى اعتناق الاشتراكية ، بل وقيادتها !!

إن كثيرا من « الخزر الأشكنازيم » ، الذين كانوا يمثلون ثلث أعضاء الحزب الاشتراكى الديموقراطى الروسى ، قد طلبوا فى عام ١٩٠١ أن يكون لهم تنظيمهم المستقل الذى يحمل اسم البند « أى جماعة العمال الاشتراكيين اليهود الروس » ، ولكن لينين رفض ذلك وأصر على اندماج هذا التنظيم كاملا فى الحزب الثورى .

وما أن منيت ثورة ١٩٠٥ بالفشل ، حتى هجر كثير منهم الاشتراكية ، والثورة ، ونزحوا إلى فلسطين ، لينشئوا المستوطنات اليهودية فيها تمهيدا للاستيلاء عليها ، ولم يجدوا غضاضة فى

الاستعانة بأموال المليونير اليهودى الفرنسى روتشيلد فى إقامة « المزارع الجماعية » فى فلسطين ! من بين هؤلاء النازحين كانت أم موشى ديان ، لذلك لم يكن غريبا أن يقول موشى ديان فى مذكراته ، إن « اليهودية » بالنسبة له تعنى « الدولة » ولا شئ غير ذلك !

من أجل الدولة ، أو السيطرة ، استباح اليهود الخزر الأشكنازيم ، كل شئ ، بما فى ذلك التلون السياسى ، بكل مذهب من أجل الوصول إلى أغراضهم فى التسلط ، وليس أقل من السيطرة العالمية ما يرضيهم ! ويبتزون العالم ، باسم معاداة السامية ! القضاء الجزئى على تسلط الطبقة الجديدة فى بولندا فى الأحداث التى أشرت إليها فى السبعينات ، يصورها بعض كتابهم بأنها معاداة للسامية . وهم يحاولون الآن أن يركبوا موجة السخط السائدة فى بولندا ، والدعوة إلى حرية تشكيل النقابات العمالية ، ليوجهوها ضد الاشتركية عموما والتحالف مع الاتحاد السوفييتى ، وليس ببعيد أن قال وزير خارجية « إسرائيل » للمندوب السوفييتى فى الأمم المتحدة : « خفوا أيديكم عنا فى الشرق الأوسط ، ونحن نخفها عنكم فى بولندا » !!

بعد أن اعترف خروشوف فى المؤتمر العشرين للحزب البلشفى ، عام ١٩٥٦ بأن ستالين كان طاغية مستبدا ، ولم يكن قائدا اشتراكيا عادلا ، سارع كثير من الكتاب اليهود الماركسيين إلى الإفاضة فى شرح جرائم ستالين ، واختصوا منها بالذكر ، أنه كان يضطهد اليهود ،ويمنعهم من الهجرة إلى إسرائيل ! والحقيقة أنه كان هناك صراع مكتوم بين ستالين وعدد من القادة اليهود فى الحزب البولشفى ، الذين لم يهربوا مثل سابقيهم من الثورة الروسية ويلجأوا إلى الصهيونية وأرض الميعاد ، وعلى رأسهم تروتسكى ، ويعود الصراع بين الفريقين إلى أيام لينين ذاتها فى الفترة ما بين ثورة فبراير « البرجوازية » عام ١٩١٧ ، وثورة أكتوبر الاشتركية فى نفس العام . فقد كان لينين يدعو المقاتلين فى الجبهة مع ألمانيا ، إلى إلقاء السلاح ، والتآخى مع المقاتلين الألمان . وحاولت حكومة كيرنسكى المؤقتة فى روسيا بعد سقوط القيصر ، تقديم لينين إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى لدعوته إلى التخلى عن الدفاع عن أرض الوطن ، بينما كان لينين يرى أن واجبه « الدولى » يملى عليه أن يطالب العمال بأن يكفوا عن قتل بعضهم بعضا من أجل أطماع الرأسماليين فى مختلف البلدان الأوربية — كان لينين مختفيا بمساعدة

حزبه فى ذلك الحين ، ولكن تروتسكى وزينوفييف وكامينيف ، طالبوا لينين – فى اجتماع للجنة المركزية للحزب – بأن يخرج من مخبئه ، ويسلم نفسه للسلطات ، وعليه أن يدافع عن وجهة نظره فى المحاكمة ! ولكن ستالين رفض هذا الموقف ، واعتبره تآمرا على حياة لينين ، لكى يخلو الجو لتروتسكى وعصابته « اليهودية » للسيطرة على الحزب البولشفى « والدولة السوفييتية فيما بعد » وانحازت أغلبية اللجنة المركزية إلى ستالين ، وأنقذ عنق لينين لكى يقود الثورة البلشفية الناجحة فى أكتوبر من ذلك العام . ولكن الصراع بين ستالين والزمرة اليهودية ، استمر بعد وفاة لينين ، حيث تخلص منهم وقام بتصفيتهم جسديا على طريقته المشهورة فى التاريخ ، والتى دمغت حكمه بالطغيان ، ولكنه نجح على الأقل فى أن يظفر بالدولة السوفييتية مستقلة ، عن السلطة المطلقة للزمرة اليهودية . وإن كان اللوبى اليهودى الصهيونى لا يزال له وجود فعال فى المجتمع السوفييتى ، حيث أن نصف علماء روسيا من اليهود الخزر ، حتى لقد اضطر الاتحاد السوفييتى إلى اتخاذ قرار سرى ، علمت به أثناء زيارتى له عام عام ١٩٧٦ يقضى بألا تزيد نسبة من يلتحقون بمدارس الرياضيات العليا من اليهود فى الاتحاد السوفييتى كل عام ، عن ٥٪

من مجموع الطلبة ! وهذا اللوبى الصهيونى هو الذى يقود الآن حركة المنشقين ، التى تدعو إلى إباحة الهجرة اليهودية والدعاية الصهيونية !

شكل آخر من اشكال السيطرة « الدولية » لليهود لمسته فى بريطانيا فى صيف عام ١٩٨١ . كنت قد شرعت فى شرح قضية « الخزر » لمجموعات من الشباب المصريين والعرب الذين يقيمون فى بريطانيا للدراسة والعمل ، وبعضهم أساتذة فى الجامعات هناك ووجدوا أن هذا المنهج من كشف حقيقة اليهود الخزر وزيف نسبتهم إلى إسرائيل ، أداة صالحة فى مواجهة الدعاية الصهيونية حتى لقد طمعنا ، هم وأنا ، فى تشكيل لجان للدفاع عن « أرض إبراهيم » أرض الرسالات الدينية فى عالمنا العربى ، ضد الغزو الهمجى للخزر الغرباء عنها كل الغربة ، يمكن أن ينضم إليها أى منصف يرى الحقيقة بعينه ، مهما تكن ديانته أو جنسيته . وكان أن شرعنا فى طبع بعض المنشورات لتوزيعها على الشباب العربى ، لتدريبهم على ذلك المنهج !

وعند عودتى إلى الفندق ذات يوم من تلك الأيام فى لندن ، فوجئت برجل أفريقى ضخم الجثة يبدؤنى بالحديث على هذا النحو :

— ينبغى أن تعمل فى خدمة الرب !

من أنت ؟

– أنا قس مسيحى !

□ أما أنا فعربى أرى أن خدمتى « للرب » هى فى النضال ضد سيطرة اليهود على بلادى العربية .

– أنصحك يا صديقى ألا تتفوه بكلمة ضد اليهود فى هذا البلد ، فهم الذين يحكمونه !

وكان من طبيعة الأمور ، أن أرحل وشيكا عن ذلك البلد ، الذى يحكمه اليهود !

* * *

٨ – اليهود الشرقيون إلى أين يتجهون ؟(*)

تواترت الأنباء منذ أسابيع قليلة عن تشكيل حركة سياسية جديدة فى الدولة الصهيونية باسم حركة « الشرقيين من أجل السلام » .

ومن المعروف أن الشرقيين من اليهود كانوا هم أكثر أنصار حكومة مناحم بيجين حماسة فى تأييد سياستها العداونية وخاصة فى الاستيلاء على الأرض العربية المحتلة فى الضفة الغربية وغزة وإقامة المستوطنات « اليهودية » عليها ، تمهيدا لإعلان ضمها إلى الدولة الصهيونية . ولا شك أن الذين اندفعوا فى تأييد حكومة بيجين وسياستها العدوانية ، هم من أسرى الأوهام الدينية التى حرصت الصهيونية على الترويج لها ، عن استرداد « أرض إسرائيل التوراتية » ، ولو عن طريق اضطهاد سكانها العرب وطردهم منها وتقتيلهم وتشريدهم وإيقاع كافة صنوف العسف بهم ، آخرها كانت محاولة إبادة الجنس الفلسطينى ، عن طريق تسميم طالبات المدارس ،

(*) نشرت بمجلة الهلال فى يوليو ١٩٨٣ .

بأشنع مما كانت تروى الكتب المقدسة ، قبل ظهور موسى ، حيث كان « يقتل أولادهم ويستحيى نساءهم » ، فإبادة « الإناث » على النحو الذى حاولت الصهيونية ممارسته ، هو أقصر طرق إبادة الأجناس ،بشرا كانوا أو أية مخلوقات حية !

ولا شك أيضا أن الذين يتطلعون إلى السلام الآن من اليهود الشرقيين أعضاء تلك الحركة ، يدركون أنه لا أمل فى قيام السلام ما لم تتوقف تلك الأعمال الإجرامية ، التى تمارسها حكومة بيجين والجماعات الصهيونية المتطرفة المستظلة بظلها . ومازالت دماء الذين تمت إبادتهم فى صبرا وشاتيلا تنزف حتى الآن وتكتب الخزى والعار على الدولة الصهيونية .

وربما تبين لبعض هؤلاء « اليهود الشرقيين » ، الخدعة الكبرى التى يمارسها « الأشكناز » من حكام الدولة الصهيونية ، فهم باغتصابهم المزيد من الأرض العربية ، وإقامة المستوطنات اليهودية عليها ، لا يردون أبناء إسرائيل إلى أرضه كما يزعمون ، حيث أن المصدر الرئيسى لهم من المستوطنين الجدد الذين يجلبونهم ، هم من أبناء جلدتهم من اليهود الخزر الأشكناز ، الذين يأتون بهم من

القوقاز الروسى ، المصدر الأول لكافة اليهود الغربيين ، سواء فى شرق أوربا أو الولايات المتحدة الأمريكية ، واستجلاب المزيد من هؤلاء لن يخل بالتكوين الديموغرافى ، مع العرب الفلسطينيين فى الأرض المحتلة وحدهم ، بل مع اليهود الشرقيين على أرض فلسطين .

واليهود الشرقيون ، أو « السفارديم » كما يعرفون ، هم وحدهم الذين يمكن أن يكون بعضهم سليلا حقيقيا لبنى إسرائيل المذكورين فى التوراة ، وبعضهم ، مثل يهود اليمن ، هم سلالة عربية اعتنقت اليهودية من قديم ، ربما على عهد سليمان وبلقيس ومنهم انتقلت اليهودية ، كديانة ، إلى الحبشة وسائر افريقيا ، وبعض هؤلاء نزحوا مع العرب إلى أسبانيا فى أيام الأندلس ، حيث عرفوا هناك باسم السفارديم ، وقد انتشروا فى سائر البلاد العربية ، وبعض البلدان الأوربية على حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهم يعتبرون أنفسهم — أى السفارديم — اليهود الأصلاء ، دون الدخلاء من الخزر الأشكناز فى شرق أوربا والأمريكتين ، والدولة الصهيونية ، بل هم الذين أطلقوا على الأخيرين اسم « الأشكناز » تمييزا لهم ، عن اليهود الأصلاء أو « الإسرائيليين » ، حيث أنهم ينسبونهم بذلك إلى أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح الذين يعتقدون أنه أبو السلالة القوقازية المتميزة تماما عن « الساميين » .

واليهود الشرقيون ، أو « السفارديم » الذين يشكلون تلك الحركة الجديدة ، ربما يكونون قد أدركوا أن إقامة المزيد من المستوطنات « الأشكنازية » على أرض فلسطين ، لن يزيد من رقعة ملك إسرائيل ، بقدر ما ينقل إلى الأرض المقدسة ملك « الخزر » المفقود ، ملك بولان وعبديه ، وسواهم من ملوك الخزر الذين اعتنقوا اليهودية فى عصور متأخرة بدلا من ملك داوود وسليمان الذين يبكيهما اليهود ! .

وتلك حقيقة يدركها حتى أولئك اليهود الاشكنازيم ، الذين نزحوا إلى القدس منذ زمن مدفوعين بعواطفهم الدينية ، ولكنهم استنكروا وما زالوا يستنكرون قيام الدولة الصهيونية وادعاءها أنها تعيد « ملك إسرائيل » ، بالقهر والتسلط والعدوان ، ومازال هؤلاء فى جماعة « نيوتورى كارتا » يرفضون الاعتراف بتلك الدولة أو التعامل معها ، ويعتبرونها إحدى الخطايا الكبرى فى تاريخ اليهود .

ربما يكون ، بعض هؤلاء اليهود الشرقيين ، الذين يعملون حاليا من أجل السلام ، قد أدركوا أن التوراة ليست نصا مسرحيا يعاد تمثيله فى كل حين وزمن حيثما تشاء الأهواء ! فقصة خروج

بنى إسرائيل من مصر إلى أرض الميعاد ، كانت حدثا فريدا فى التاريخ غير قابل للتكرار . كانوا هم فعلا بنى إسرائيل الحقيقيين .

أما هؤلاء الأدعياء من الخزر الأشكناز ، فهم ليسوا من بنى إسرائيل التوراتية فى شئ ، واعتناقهم اليهودية كان متأخرا جدا عن زوال ملك إسرائيل ويهوذا فى فلسطين ، بل وبعد ظهور كل من المسيحية والإسلام ، وممارستهم للديانة اليهودية كانت مخالفة تماما لأصول العقيدة الموسوية ، وفيها الكثير من الممارسات الوثنية لأقوامهم . أما الفلسطينيون الذين يحاربنهم ويذبحونهم ويضطهدونهم الآن ، فهم إما أنْ يكونوا من أبناء إسرائيل الحقيقيين تنصر أباؤهم أو أسلموا ، أو من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عم إسرائيل وأخو إسحق الأكبر ، عليهم السلام ، وغير معقول ان يأمر « الرب » أو يرضى بإبادتهم بأسلحة أدعياء صهيون ! .

لقد استجاب كثير من اليهود الشرقيين ، إلى تحريضات الصهانية الخزر فى شرق أوربا ، حيث نشأت الحركة الصهيونية ، وقامت أساساً على أكتاف يهود روسيا وبولندا ، وهاجروا إلى فلسطين بدعوى العودة من « الشتات » إلى أرض إسرائيل ، ولكنهم

فى حقيقة الأمر لم يكونوا إلا واجهة لأغراض الخزر ومراميهم من إقامة الدولة الصهيونية فى فلسطين ، بحيث تكون دولة هم أصحابها المتصرفون فى أمرها ، ولم يكن لليهود الشرقيين فيها منزلة توازى هؤلاء ، رغم كونهم الأغلبية ، ورغم كونهم اليهود « الأصلاء » . ومنهم من قد تصح نسبته إلى إسرائيل . وأن فكرة « الشعب المختار » . أو « الشعب المقدس » ، التى لم تكن لتنطبق على الخزر الأشكناز بحال من الأحوال ، إنما خرج بها الخزر عن معناها تماما ، حينما نسبوا أنفسهم إلى إسرائيل وتاجروا باسمه . لقد اغتصبوا لأنفسهم الاسم المقدس ، تمهيدا لاغتصاب الأرض المقدسة . وخلطوا عن عمد بين العصبية الدينية ، والهوية القومية ، بادعاء النسبة إلى إسرائيل ، ولكن ولاءهم الحقيقى هو لأنفسهم ، باعتبارهم جنسا ، حاولوا أن يجعلوه الجنس الأسمى ، ليس فى صفوف اليهود وحدهم ولا الدولة التى أقاموها فى فلسطين ، حيث يحتكرون السلطات العليا فى السياسة والجيش والأقتصاد والأدارة .. الخ ، ويمارسون سطوتهم باعتبارهم « أوربيين متحضرين » بالقياس إلى « الشرقيين » المتخلفين ، بل إن تطلعهم إلى السيطرة ، ينعكس على كثير من المجتمعات ، التى جاءوا منها أو بقيت منهم جالية فيها ، بما فى ذلك أوربا والولايات المتحدة الأمريكية .

يحاول الأشكناز ، الذين يحكمون الدولة الصهيونية ، أن يغطوا جلبهم الجديد للمستوطنين من القوقاز الروسى ، بتشجيع بعض اليهود الأحباش من « الفلاشا » ، على الهجرة إلى الأرض المقدسة ، ولكن لم تغب بعد من الذاكرة الواقعة التى رفض فيها حكام الدولة الصهيونية ، أن تنزل « أرض إسرائيل » مجموعة من اليهود الزنوج الأمريكين حصروا منذ سنوات إليها استجابة للفكرة الصهيونية ، وأعادوهم من حيث أتوا على نفس الطائرة ، مما يشى بالعصبية العرقية التى تسود هؤلاء الأشكناز ، وتفضح سوء استغلالهم لفكرة « الشعب المختار » ، التى يفرضون لأنفسهم بها طوقا من الامتياز على الأجناس الأخرى ، تصل إلى حد التقديس ، لدى بعض المجتمعات المسيحية ، التى لا تعرف حقيقتهم ، ولا كذب دعواهم فى النسبة إلى إسرائيل ، وتحسب ، مثل ما يعتقد البروتستانت فى أمريكا وانجلترا ، أن « عودتهم » إلى أرض إسرائيل ، إنما هو تمهيد لنزول المسيح أو ظهوره طبقا لعقائد اليهود ! . من قال إن المسيح يمكن أن يظهر أو يعود ، فى « خزريا » جديدة ؟ !

ربما يكون بعض اليهود الشرقيين ، قد أدركوا الآن ، أن « الدولة المعسكر » ، التى أشرف على أنشائها الأشكناز الخزر ، وجعلوا منها

مطية لكافة القوى الاستعمارية ، إنجلترا فى الماضى والولايات المتحدة الأمريكية فى الحاضر ، إنما هى امتداد عضوى للجالية الخزرية الكبرى فى العالم ، يهود الولايات المتحدة الأمريكية الأشكناز ، بصلاتها مع أكبر القوى الإمبريالة وأشدها ضراوة فى التاريخ وأن هؤلاء – أى يهود أمريكا – لن ينووا التخلى عن موقعهم الممتاز فى تلك القوة العظمى ، لكى « يعودوا » إلى « أرض الميعاد » ، وإنما هم من بعيد يسخرون سكان الأرض المقدسة الحاليين ، سواء من اليهود الشرقيين أو من حضر إليها من الأشكناز ، ليكونوا بمثابة حامية عسكرية لمصالحهم فى « الشرق الأوسط » ، أو على حد وصف أحد الساسة الأمريكيين لإسرائيل بأنها حاملة طائرات لا تغرق ، وأنه كان يتمنى أن تكون لبلاده إسرائيل مماثلة فى كل مكان فى العالم !

أين تلك الأغراض « الدنيوية » المسرفة فى دناءتها ، من أوهام إعادة ملك داوود وسليمان ، على أرض الأنبياء ؟ !

لعل بعض اليهود الشرقيين ، ومنهم رئيس اتحاد اليهود العرب ، « ليون تمام » ، الذى حضر إلى القاهرة فى أوائل يونيو من هذا العام ، أقول لعل هؤلاء يذكرون أن المجتمعات العربية والإسلامية ، لم تعرف

فى تاريخها أشكال التعصب الدينى والعرقى التى سادت المجتمعات الأوربية ، وأنهم كانوا يعيشون بين ظهرانى الشعوب العربية آمنين على أنفسهم وعقائدهم وكرامتهم ، وكان ضربا من الغفلة أن يضيعوا مصالح راسخة كانت لهم فيها جريا وراء أحلام الصهيونية ، التى جعلتهم مجرد أدوات فى يد الأشكناز من مغتصبى فلسطين . وأن تأريث العداوة بينهم وبين شعوب المنطقة عن طريق الغطرسة العسكرية التى تمارسها الصهيونية ، هو أشد الأوضاع خطرا على أمنهم ومستقبل أبنائهم . لذلك أفاق بعضهم الآن وراحوا ينشدون السلام . لعل بعض هؤلاء الشرقيين قد أدركوا ، أن من يأتون بهم من القوقاز الروسى ، من المهاجرين الأشكناز الجدد ، لا يأتون بهم إلى أرض تفيض لبنا وعسلا ، وإنما دماء ودموعا ، وأن أوضاعهم فى بلادهم لم تكن بالسوء الذى يسوغ الهجرة من أوطانهم لاغتصاب أوطان الآخرين . لقد كانوا ضحايا الاضطهاد فى الماضى ، فى روسيا القيصرية وبعض شرق أوربا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، ولكن مشكلة الغالبية الكبرى منهم حلت عن طريق الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وسائر الأمريكتين وهم يتمتعون بأوضاع ممتازة فى تلك الدنيا الجديدة .

أما من بقى منهم فى روسيا .. أو شرق أوربا ، فقد اختفت ألوان التعصب القديمة ضدهم . بل إن احتضان القوى الاستعمارية للحركة الصهيونية ومنها صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ ، بعد أيام من الثورة البلشفية فى روسيا ، إنما كان لتحويلهم عن طريق الثورة التى كفلت فى بلادهم المساواة بين الأجناس والعقائد ، ودفعتهم إلى الصدارة فى مجتمعاتهم ، وجهود القوى الاستعمارية حاليا فى تشجيع حركة المنشقين فى المعسكر الاشتراكى ، إنما هى استمرار لتلك السياسة وابتزاز مقصود للخصوم السياسيين ، وتدور معظم تلك الحركات فى فلك المطالبة بالسماح بهجرة اليهود وإباحة الدعاية الصهيونية بينهم ، ليس إشفاقا على يهود تلك البلاد ، ولكن تسخيرا لهم فى الأغراض الاستعمارية المزدوجة سواء فى إفقاد بعض سكان المعسكر الاشتراكى ولاءهم لبلادهم أو استعباد الشرق ، من خلال إسرائيل ، حيث يكلف الجندى « الإسرائيلى » أقل بكثير من الجندى الأمريكى على سبيل المثال ، وحياته عند صناع تلك السياسة أرخص بكثير .

لقد انطوى المشروع الصهيونى على أوهام كثيرة ، بعضها لم يتحقق والآخر غير قابل للتحقيق ! . وأولها حكاية عودة شعب

إسرائيل إلى أرضه ، فالذى عاد ، أو الذى أتى فى واقع الأمر ، هم قطعة من شعب الخزر ، الذى تبدد عبر التاريخ وبعد تهوده فى روسيا وشرق أوربا والأمريكتين ، ولكن الذى تحقق فى الواقع هو وضع كريه سالت فيه الدماء ، ومازالت عرضة لأن تسيل ، لغير ما غرض معقول معقول ولا مقبول . ولكن سياسة المغامرين الاستعمارية هى التى أرادته .

إن الوضع الطبيعى لليهودى الشرقى ، أو فى واقع الأمر ، لكل منتسب إلى إحدى الديانات السماوية ، أو مجرد إنسان يعرف قيمة الحياة والكرامة والحضارة الإنسانية ، أن يكون موقعه فى صفوف المدافعين عن الأرض المقدسة ، أرض الأنبياء ، أرض إبراهيم ، ضد الغزوة التى شنها عليها المغتصبون من الخزر الأشكناز ، وأنصارهم وحلفاؤهم ومحرضوهم فى الدوائر الاستعمارية ، لتمزيق المنطقة العربية وإخضاع شعوبها والتسلط على مقاديرها ، على نحو ما حاولت الغزوة الصليبية فى الماضى .

ولقد جاءت أنباء أيضا ، عن مشاركة عدد من الشباب اليهودى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى حركة اليسار الجديد ، التى قامت هناك ، وتستهدف حل مشاكل الرأسمالية الاحتكارية

المتفاقمة ، وعلى رأسها مشكلة البطالة ، عن طريق الإجراءات الاشتراكية الديموقراطية ، التى يرون أيضا أنها الطريق الذى ينبغى أن تتجه إليه النظم الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى وشرق أوربا وسائر العالم . فهل آن لفريق من أبناء « المحظوظين » من الخزر الأشكناز فى الدنيا الجديدة . أن يدركوا حقائق التاريخ ، وأن يصلحوا بعض ما أفسد آباؤهم بسياساتهم الاستعمارية فى أنحاء العالم بما فى ذلك مساندتهم وتسخيرهم للدولة الصهيونية فى عالمنا العربى ؟ !

* * *

٩ - الفضيحة .. والحصار المتبادل مع دولة الخزر (*)

أثناء حصار بيروت فى الصيف الماضى ، أدرت مؤشر « الراديو » على إذاعة « العدو الصهيونى » لأسمع بعض ما يقولون ، كانت المفاوضات دائرة آنذاك حول خروج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت ، وكان المذيع الصهيونى يعلق على بعض ما قيل فيها ، ويؤكد أن منظمة التحرير الفلسطينية هى منظمة إرهابية ، تستهدف القضاء على « دولة إسرائيل » ، والدليل على ذلك هو إصرارها فى ميثاقها ، على أن « اليهودية ديانة ، وليست قومية » !

لم يذكر المذيع ، فقرة من ميثاق المنظمة ، تنص مثلا ، على إبادة اليهود فى فلسطين ، لأن مثل هذه النص لا وجود له ، ولكنه اعتبر القول بأن اليهودية ديانة وليست قومية ، مرادفا للقضاء على دولة إسرائيل ، لأن الفكرة الصهيونية قائمة برمتها ، وما ترتب عليها من مؤسسات ، بما فى ذلك الدولة ، على أن اليهودية قومية وليست مجرد ديانة ، وأن من حق جميع يهود العالم أن يأتوا إلى فلسطين

(*) نشرت بمجلة الهلال فى أغسطس ١٩٨٣

باعتبارها وطنهم « القومى » ، وأن يخرجوا منه سكانه ، وأن يوسعوا رقعة هذا « الوطن » ما استطاعوا على حساب جيرانه ، لكى يستوعب الأعداد المتدفقة منهم ، بدعوى أن فلسطين ، وما حولها ، كل هذه « أرض إسرائيل التاريخية » !

ولقد أذكر أيضا ، بهذه المناسبة ، أننى التقيت هنا فى مصر ، للمرة الأولى والأخيرة بواحد من رجال الإعلام الصهاينة ، بعد توقيع معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية . كان ذلك فى منزل أحد الأصدقاء الصحفين المصريين وفى حضور آخرين .. وضعا للأمور فى نصابها .

اسم ذلك « الضيف » « يهودا يعيرى » ، الذى كان يعمل وقتها مديرا للقسم العربى بالتليفزيون الاسرائيلى ، وحضر إلى القاهرة ضمن وفد صحفى إسرائيلى !

ورحنا نحدثه عن حقوق الفلسطينيين باعتبارها جوهر المشكلة ، وعن مدى استعداد دولته للاعتراف بها ، بعد حصولها على السلام مع أكبر دولة عربية ، فكان رده الحاسم هو : « إذا كنتم تظنون أنكم باسم السلام سوف تجردون إسرائيل من صهيونيتها ، فأنتم واهمون » .

وقد أكبرت منه هذه الصراحة والحق يقال ، فهى خير على كل حال من الخداع والمراوغة ! .. فاتنى أن أذكر أن هذا الرجل ينتمى إلى حزب العمل « المعارض » ، فى دولة إسرائيل !

وأعتقد أن هذه كانت نقطة البدء عندى فى الاهتمام « بالأصول القومية » ، الحقيقية لغزاة فلسطين من الصهاينة الأوربيين ، لأن الرجل راح بعد ذلك يقول كلاما فارغا كثيرا عن حقوقهم التاريخية فى أرض الميعاد ، ويستشهد فى صفاقة نادرة المثال حتى بالقرآن الكريم ، حيث تنص السورة الخامسة منه – على حد زعمه – على تأكيد هذا الحق ! وهو يقصد بذلك قوله تعالى فى سورة المائدة : « ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . »

وتلك كانت كلمة موسى عليه السلام لبنى إسرائيل عندما أمرهم بالخروج من مصر إلى أرض كنعان فى فلسطين . ولقد خرج قوم موسى بالفعل من مصر إلى فلسطين ، وأقاموا ملك داود وسليمان هناك ، وانتهت بذلك القصة الدينية التاريخية ، وانتهت الدولتان اللتان قامتا هناك إحداهما باسم إسرائيل ، والأخرى باسم يهوذا « السبط الأكبر لإسرائيل » بعد قيامهما منذ حوالى ثلاثين

بالغزو البابلى ، ووقوع بنى إسرائيل ، أو « اليهود » فى الأسر أو الشتات . وآخر من يعرفون باسم طائفة « بنى إسرائيل » من بين الطوائف اليهودية المتعددة فى العالم ، هم عدة ألوف من يهود الهند ، انقرضوا تقريبا ، وآخر بقاياهم يحاولون الآن ، كما تقول التقارير الصحفية ، الهجرة إلى أمريكا !

هل يحق – بعد انتهاء هذه القصة – لكل من اعتنق هو أو آباؤه الديانة اليهودية بعد ذلك ، أن يزعم أنه من بنى إسرائيل ، ومن حقه العودة إلى الأرض المقدسة ، بدعوى أن اليهودية ، خلافا لجميع الديانات التى ظهرت فى هذه المنطقة ، أو غيرها من العالم ، هى وحدها الديانة القومية ، أو القومية فقط دون الديانة ، إذا كان المنتسب إلى اليهودية ، غير متدين وملحدا مثلا ، كالكثير من قادة الحركة الصهيونية ؟ ! هل ذلك جزء من امتياز « الشعب المختار » ، أن يصبح كل معتنق لديانته ، وكل سليل لمعتنق لديانته ، منتميا إليه « قوميا » ومن حقه أن يطالب بحقوقه « القومية » فى أرض فلسطين وما جاورها ؟ ! هل ذلك امتياز خاص لهؤلاء الناس ولتلك الديانة ، على جميع الشعوب والديانات ؟ !

ذلك هو اللب النظرى ، للصراع الدائر فى المنطقة : الخلط المتعمد الذى تعمد إليه الصهيونية على حد تعبير الدكتور عبد الوهاب المسيرى [١] ، بين ما هو قومى وما هو مقدس ، أى الخلط بين الدين والقومية ، فى وقت يتجه فيه العالم ، وقد اتجه بالفعل ، إلى قيام الدول على أسس قومية بغض النظر عن الخلافات الدينية ، مع التطلع فى بعض أجزائه ، وفى عصر الكيانات الكبرى ، إلى إقامة كيانات دولية « فوق القومية » أو متعددة الجنسيات ، على غرار الاتحاد السوفييتى مثلا ، ومشروع الوحدة الأوربية ، فضلا عن الولايات المتحدة الأمريكية ، التى تدفق إليها المهاجرون وما يزالون ، من كافة أصقاع الأرض . بما فيهم الجالية الكبرى من يهود العالم .

ما ذنب منطقتنا ، حتى تبتلى وحدها بهذا اللون من الخلط ما بين القومية والدين ؟ وذلك عشية القضاء على آخر دولة « دينية » كانت قائمة فيها ، وهى الدولة العثمانية ، التى كان يدين لها بالولاء — على ما شابها من عيوب — كل مسلمى السنة فى العالم ، بمن فيهم العرب ، وتعيش فيها أقليات ، مثل جميع أرجاء العالم ، تنتمى إلى

---

(١) فى كتابه عن الأيديولوجية الصهيونية .

عقائد أخرى ، أو مذاهب تنتسب بدورها إلى الإسلام ، دون مذهب أهل السنة ؟ بل لقد كانت دعوة القومية هى أداة تفتيت تلك الدولة ، سواء بالثورات عليها فى مقاطعاتها « المسيحية » فى شرق أوربا ، أو من داخلها ذاتها ، حينما تواطأ يهود الدونما باسم الجامعة الطورانية على فرض « التتريك » على رعايا الدولة من العرب وكان ذلك إيذانا بسقوطها إلى حد تحالف بعض رعاياها من العرب المسلمين ، مع أعدائها من الدول الاستعمارية كانجلترا وفرنسا ، فى الحرب العالمية الأولى وما تلاها . وقنع العرب بأن تكون لهم دولهم ، أو دولتهم الواحدة فى الأمانى البعيدة ، على أساس قومى بحت ، على أساس رابطة اللسان وحدها دون بقية الروابط ، مع إرهاصات لم يكتب لها النور ، حول نقل « الخلافة الإسلامية » إلى قاعدة عربية !

من ذلك « المفصل » ما بين سقوط الدولة العثمانية ، باعتبارها دولة الخلافة ، وعدم قيام دولة عربية موحدة بديلة ، لا باسم القومية ولا باسم الخلافة ، نفذ الصهاينة بغزوهم فى ظل الانتداب البريطانى ، ليقيموا دولتهم على أساس المزج ما بين العقيدة الدينية والقومية ، باسم حق « الشعب اليهودى المشتت فى العودة إلى وطنه » !

لذلك كان المفصل المقابل ، الذى تحاذره الدولة الصهيونية ، ومؤسساتها الفكرية والتعليمية والدعائية ، هو إثبات الحقيقة البسيطة ، شبه البديهية التى تقررها منظمة التحرير الفلسطينية فى ميثاقها ، وهى أن اليهودية .. مجرد ديانة وليست قومية !

من أجل تغطية هذا المفصل ، كانت كل جهود الدعاية الصهيونية ، لطمس الحقيقة التاريخية ، حول الأصول القومية للصهاينة من غزاة فلسطين تجنبا للفضيحة التى لا بد وأن تعلق بالنظرية الصهيونية من أساسها ، وهى أن من يجلبونهم من يهود العالم لاستيطان الأرض المحتلة فى فلسطين ، بما ذلك قادة الحركة الصهيونية أنفسهم ، إنما ينتمون « قوميا » إلى جنس الخزر ، الذى انحدر من القوقاز الروسى ، وكانت لهم دولة هناك ، اعتنق ملوكها اليهودية فى عصر متأخر ، بعد ظهور المسيحية والإسلام ، وانقراض « إسرائيل » التاريخية فى فلسطين بزمان . وأن بقية اليهود قد اسموهم الأشكناز نفيا لهم عن النسبة إلى إسرائيل ، وأن أكثر من ٩٠٪ من يهود العالم هم من ذلك الجنس ، ودائرة المعارف اليهودية ذاتها تؤكد انتشاره فى أرجاء العالم ، وخاصة المناطق التى يكثر فيها اليهود ، فعلى حد قولها ، يهود روسيا وبولونيا هم من بقايا دولة الخزر ، والمهاجرون

منهم إلى أمريكا جاءوا من هناك ، وكذلك من أسسوا الحركة الصهيونية ، وكانوا مادتها البشرية من يهود شرق أوربا ، بل إن دائرة المعارف اليهودية تذكر أكثر من ذلك ، أن جنس الخزر المعتنق لليهودية قد امتد وجوده إلى يهود الإسكندرية فى مصر !

ولكن افتضاح هذا الأصل غير الإسرائيلى بالمرة ليهود العالم ، هو ما تحاول الصهيونية تجنبه بكل سبيل ، ولقد أذكر أيضا ، أن الصحفى المصرى الصديق الذى ذكرته آنفا قد ذهب فى زيارة لإسرائيل ، واستأنف حواره مع « الضيف » المذكور أيضا فى أول المقال ، وذكر له بعض ما كنت قد كتبته فى بعض صحفنا عن الأصل الخزرى للصهاينة ، فكان رده أن جميع الشعب اليهودى « يعتقد » أنه ينتمى إلى إسرائيل !

أخبرنى الصديق بهذا الحديث ، بعد عودته ، ورحت أفتش عن أصل هذا المعتقد ، حتى وجدت كتابا طبع حديثا فى بيروت ، « ليس تحت يدى الآن » ، نشره أحد أساتذة التاريخ المصريين ، عن تاريخ الدولة الرومانية ، وزعم فيه مؤلفه أن شعب الخزر « يعتقد » أن داود عليه السلام ، قد زنا بجارية خزرية ، هى التى ولدت هذا الشعب كله ، لذلك صار يهوديا كله أو معظمه فيما بعد !

هذه القصة المشينة عن نبى الله داود عليه السلام ، لا أصل لها فى الكتب المقدسة ، ولا فى التوراة التى يزعمون أنها وثيقة حقوقهم فى أرض الميعاد ! ولكنه الجهل وصانعوه ومتبعوه والمستفيدون منه مثل قادة الحركة الصهيونية ومن يسخرونهم من القوى الاستعمارية الكبرى !

وإذا كانت « دولة الخزر » التى أنشأها الصهاينة غصبا على أرض فلسطين العربية ، والصهيونية العالمية من ورائها ، تحاصر العالم العربى الآن عن طريق التأييد المعنوى الهائل ، الذى تستمده من المجتمعات المسيحية ، التى تبغض اليهود وتقدسهم فى آن معا ، وتحل لهم ما حرمته حتى على أنفسها داخل مجتمعاتها ، من قيام الدول على أساس دينى ، والمزج الشاذ ما بين القومية والدين ، وتجعل منهم من خلال التسليح المكثف القوة العسكرية الرئيسية فى المنطقة العربية ، بهدف إخضاعها لكافة المصالح الاستعمارية المادى منها والمعنوى ، فإلى متى يدوم هذا الحصار ، وإلى أى غاية يمضى !

إن الحصار العربى المضاد ، يتمثل ، فى الحقيقة البسيطة ، وهى غلبة اللسان العربى على ربوع المنطقة ، وقدرته عبر التاريخ ، على استيعاب كل وافد إليها ، أو حتى دخيل عليها .. من أبناء الأمم

الأخرى ، حربا أو سلما . والمصير الطبيعى لكل من يعيش على هذه الأرض ، على المدى المتطاول ، مهما كان أصله أو جنسه أو ديانته ، أن يصبح عربيا ، باللسان ، وقد كان جميع المستوطنين اليهود فى فلسطين قبل دعوة هرتزل يتكلمون العربية ولا يعرفون العبرية ، حتى جاء الخزر المستعمرون .

ماذا يظن الصهاينة أنفسهم فاعلين بهذه المنطقة ، حتى ولو جلبوا إليها كل يهود العالم خزرهم وغير خزرهم ، وهم لا يستطيعون ذلك لأن يهود أمريكا لن يأتوا ، ويتخلوا عما هم فيه من موقع السيطرة العالمية بما فى ذلك قدرتهم على إمداد « دولة الخزر » الصهيونية على أرض فلسطين بما يلزمها من مدد عسكرى وغير عسكرى ، بل إن نزوح بقية الخزر من يهود روسيا ، كما يطالب زعماء الصهيونية إلى الدولة الصهيونية ، سوف يفقدهم اللوبى الصهيونى القائم هناك ، والذى يتحرك أحيانا لصالحهم ، وربما يجعل القوة الدولية الكبرى الثانية فى العالم ، تقف تماما ضدهم .

ماذا يتصور الصهيانية أن يفعلوا بمن يأتون بهم من يهود العالم فى مستقبل المنطقة ؟ أن يجبروا شعوبها مثلا على التخلى عن اللسان العربى ليتحدثوا العبرية ، أو تصبح هى لغة الثقافة والحضارة فيها ،

أو هى مع الخليط بينها وبين اللغات الجرمانية والسلافية فى اللغة المسماة « باليديشية » لغة يهود ألمانيا وشرق أوربا ؟ ذلك ضرب من الخيال ، وشبيه به بالطبع ، أن يتوهم الصهاينة أن فى وسعهم إقناع العرب أو إجبارهم على التسليم ، بأنه ما من كتاب مقدس سوى التوراة ، ولا نبى إلا من بنى إسرائيل !

كل ما فى طوقهم أن يفعلوه الآن ، وهم يمارسونه بالفعل ، هو المزيد من تفتيت الرابطة القومية بين العرب ، عن طريق تأريث الخصومات الدينية ، وإغراء أهل كل شرذمة طائفية وخاصة فى ربوع الشام ، بأن تكون لهم دولة ، تقوم على أساس الدين ، مثل دولة اليهود فى « إسرائيل » !

ويحاولون أن يتخذوا لهم حلفاء من أمثال تلك « الدول » أو الدويلات الطائفية !

فماذا يكون المصير لو اندحرت فكرة الدولة القومية تماما فى المنطقة ، وهى ذات النظرية التى بشرت بها أوربا ، وحملها إلى أرضنا العربية تلامذة أوربا ، هل يمكن للدويلات الطائفية ، بما فيها الدولة الصهيونية ، أن تكون هى صيغة الوجود الاجتماعى والسياسى فى ربوع المنطقة ؟ وهل تستطيع الدويلات الطائفية للأقليات الدينية أن

تضمن سيطرتها المطلقة على المنطقة بكل ما هو موجود فى أيديها ، وما قد يوضع فيها مستقبلا من سلاح ؟

أظن أن أى عاقل يرى أن ذلك ضد المنطق وضد التاريخ ، فصيغة الدولة القومية هى الصيغة التى تكفل الأمن الحقيقى للأقليات فى المنطقة – وذلك هو ما تعلنه منظمة التحرير الفلسطينية فى ميثاقها وما تستنكره الصهيونية وتريد أن تدحره . وما يحيق الآن بمنظمة التحرير الفلسطينية ، بعد مجزرة بيروت هو فصل جديد من التآمر ضدها وضد ما تنادى به .

فماذا تبغى الصهيونية وحلفاؤها المعلنون والمستترون من وراء ذلك كله ؟ إن بعض ما يدور بالفعل على الصعيد العربى ، هو فضيحة حقيقية ، نجحت الصهيونية فى تصديرها إلينا ، حينما يقتل العربى أخاه العربى ، من موقع التعصب الطائفى أو الإقليمى أو مجرد العنجهية السياسية ، بينما العدو الرئيسى قابع فى ديارنا يمارس أشنع صور العربدة الإجرامية فيها .

ماذا ينتظر ، كل من يتنكر للسان العربى وينسى رابطته الوثيقة ، اتباعا للأهواء الطائفية ؟ إننا نسمع اليوم عن مليشيات من كل لون على أرض لبنان العربية المحتلة وغير المحتلة يقتل أفرادها

بعضهم بعضا ، فى أعقاب المجزرة التى أقامها العدو الصهيونى بيديه فى الصيف الماضى ، وكأنما يستكمل العرب المهمة التى من أجلها غزا العدو الصهيونى أرض لبنان ومن قبلها استولى على فلسطين .

من بين تلك « المليشيات » شكل أهل السنة من مسلمى لبنان وهم مضطرون إلى ذلك ، مليشيا خاصة بهم ، تعرف باسم « الاتحاد الإسلامى » ، فهل نسى المتواطئون الآن من كل لون ، ممن يتنكرون لرابطة اللسان العربى ، أن الغالبية من سكان المنطقة هم من العرب المسلمين من أهل السنة ، ووراءهم الملايين من المسلمين غير العرب ؟

إن من يضرم تلك النار الخبيثة الآن فى البيت العربى ، وهو من سكانه ، ينسى ، أنها أيضا ، قد تأكله !

* * *

١٠ - مذبحة الخليل المقبلة :
من يتحرك ضميره لايقافها ؟(*)

تتجمع فى الأفق الآن نذر مذبحة رهيبة ، ربما تقارب فى بشاعتها وعدد ضحاياها ، أو تفوق ، مذبحة صبرا وشاتيلا فى العام الماضى ، والتى تقترب ذكراها السنوية الأولى !

والموقع المرشح لكى يكون مسرحا للمذبحة الجديدة ، هو مدينة الخليل الفلسطينية، حيث يقوم قبر نبى الله إبراهيم الخليل عليه السلام . وحينما نقول المذبحة الجديدة ، فلا نعنى أنها منبتة الصلة بمذبحة جامعة الخليل فى شهر يوليو الماضى ، بل هى فاصل جديد فحسب ، فى الجريمة المستمرة ، جريمة استيلاء الصهاينة على الأرض العربية وتشريد أهلها وترويعهم وتقتيلهم ، وإذا كان هناك من جديد كذلك ، فهو فى حداثة « الديكور » المحيط « بالمسرح » ، أو (الجو) السياسى المواكب للأحداث الواقعة والمنتظرة ، وأيضا ،

(*) نشرت بمجلة الهلال فى سبتمبر ١٩٨٣

هناك احتمالات لأساليب جديدة ، فى « إخراج » المسرحية .. أعنى المجزرة !

ومدينة الخليل الفلسطينية – للعلم فقط – دون انتظار لاتخاذ اللازم « ! » – هى واحدة من أشهر المدن الفلسطينية ، لحملها اسم خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، أبى الأنبياء ، وأبى العرب ، والسلالة المنقرضة من اليهود « الحقيقيين » ، أو بنى إسرائيل ، حيث الصهاينة المحدثون ، والأوربيون منهم على وجه الخصوص ، والنازحون من شرق أوربا والقوقاز الروسى على وجه أخص ، هم سلالة مختلفة تماما ، من « الخزر » من بنى « أشكناز » ، كما سبق أن قدمت فى مقالات سابقة « للهلال » .

ولهذه (الفضيلة) التى يحملها اسم المدينة ، يعتز أهلها كثيرا بالنسبة إليها ، حتى أن كثيراً من أبنائها ممن سكنوا مصر ، يعرفون فيها باسم « الخلايلية » ، نسبة إلى المدينة ، وتغلب هذه النسبة على تسميتهم بالفلسطينيين ، لذلك يعرفهم العام والخاص .

وربما – بعد استيلاء الصهاينة على القدس – لم تعد هناك جريمة أفدح – معنويا على الأقل – فى عملية التهامهم للضفة الغربية – من مساعيهم لتهويد الخليل !

بعد عدة مصادمات ، بين المسلمين واليهود ، حول الصلاة عند قبر الخليل إبراهيم عليه السلام ، سقط ضحايا من العرب ، ولم يبال أحد ، وقتل شاب إسرائيلى واحد ، وقامت القيامة ، ولم تقعد حتى الآن ..!

عزل الحاكم العسكرى الإسرائيلى ، عمدة الخليل العربى ، ومساعديه من أعضاء المجلس المحلى للمدينة ، بدعوى عجزهم عن حفظ الأمن ، والتراخى فى حماية أرواح المواطنين – والمقصود بالطبع هم المستوطنون الصهاينة – وعين بدلا منه ومنهم ، عمدة من اليهود ! فكان أول عمدة يهودى لمدينة عربية بعد كوليك الذى جعلوه منذ سنوات عمدة على القدس العربية ..!

ويدور التساؤل داخل صفوف ما يسمى بالمجتمع الإسرائيلى حول ما إذا كان من حق المستوطنين اليهود أن يشكلوا ميلشيا مسلحة للدفاع عن أنفسهم ضد هجمات العرب ؟! أم أن ذلك يعتبر افتئاتا على سلطة حفظ النظام ، من الجيش والشرطة الإسرائيليين ؟ علما بأن أحدا هناك لا يجادل فى حق المستوطنين الصهاينة ، الذين يجلب مزيد منهم كل يوم إلى الخليل ، فى حمل السلاح ، بدعوى الدفاع عن أرواحهم ، وممتلكاتهم .. أى

الممتلكات العربية التى اغتصبوها من أصحابها العرب بقوة سلاح الاحتلال ...

ولا تخفى الحكومة الصهيونية عزمها ، على بناء « حى يهودى » فى المدينة ، بديلا لحى مندثر لم يبق له أثر منذ الاضطرابات التى شهدتها المدينة عام ١٩٢٩ ، أيام الانتداب البريطانى ، وقبل أن يصبح اليهود القادمون من أنحاء العالم أغلبية سكان « فلسطين » كما هو الواقع الآن .

وهكذا بعد أربعة وخمسين عاما من اندثار هذا « الحى » الميت وبعد أن قام محله حى جديد ، تسكنه أسر عربية ، تنوى حكومة الصهاينة إجلاءهم عنه ، من أجل إقامة الحىّ اليهودى من جديد ، ولن تستطيع أن تأتى بساكنيه القدامى بالطبع ، فقد أصبح معظمهم إن لم يكن كلهم فى عداد الموتى ، ولكنها بالطبع سوف تجلب للحى الجديد مستوطنين جددا من الخزر ، ليس لأحدهم أو لآبائه صلة بالحى الذى تهدم من قبل ، بل ليس فيهم من كان مولودا أيام وقع هذا التهدم .

سوف تأتى بسكان لهذا الحى من ذات المصدر الذى جاء منه معظم الصهاينة ، من القوقاز أو شرق أوربا ، ومن أجلهم ،

ومن أجل أن يصبحوا سكانا يهودا فى حى يهودى ، لا مناص من طرد الأسر العربية المقيمة هناك ، وإجبارها على مغادرة مساكنها بالقوة ، وفى إسرائيل الآن من يطالب منذ الآن بألا يبقى هؤلاء العرب فى أرض فلسطين ، وينادى بترحيلهم إلى الأردن !!

هكذا تمت وتتم مقدمات المذبحة ، فلا أحد يدرى حتى الآن هل يخضع السكان العرب ، فى ذلك الحى من مدينة الخليل لعملية طردهم بالقوة عن مساكنهم ، والنفى إلى الأردن أم يقاومون تلك الخطة الخالية من كل اعتبار إنسانى له صلة بالحضارة أو التاريخ ، أو حقوق الإنسان ؟!

لا يدرى أحد ما إذا كان هؤلاء العرب المحاصرون الآن سيقبلون تلك الخطة حول مصيرهم ومصير أبنائهم طواعية ، أم يجبرهم الأجنبى الغاصب على قبولها ، باستخدامه كافة وسائل الترويع ، بما فى ذلك تدمير المساكن على رءوسهم بالبولدوزر تمهيدا لإقامة الحى اليهودى الجديد ؟!

من أجل تلك المذبحة التى تدبر لإجبار السكان العرب على ترك ديارهم للمستوطنين الخزر ، نشأت فكرة المليشيات اليهودية المسلحة فى الخليل وسواها من الضفة الغربية المحتلة ، رغم أن

البلاد بأسرها واقعة تحت احتلال الجيش الإسرائيلي ذاته ، الذى يعد أقوى جيوش منطقة الشرق الأوسط ! ولكن المليشيات دائما كانت تنشأ من أجل « الأعمال القذرة » ، من نوع الإبادة الجماعية للبشر ، دون أن تتحمل مسئولية ذلك دولة توصف بأنها « شرعية » فى المجتمع الدولى ، وما عهدنا بمذبحة صبرا وشاتيلا على أيدى « المليشيات » ببعيد ، تحت سمع وبصر ومشاركة وتمهيد جيش الاحتلال الإسرائيلي ذاته على أرض لبنان . وبالطبع لم ينس أحد أنه قبل أن تقوم الدولة الصهيونية ويقوم جيشها النظامى ، كانت القوة المسلحة الصهيونية كلها مليشيات أو عصابات ، من نوع شتيرن والأرجون زفاى ليومى ، ورئيس إحداهما كان هو رئيس الوزراء للدولة الصهيونية ، مناحم بيجين ، الذى تمت على يديه هو وأعوانه مذبحة « دير ياسين » التى كانت بداية ترويع السكان العرب العزل ، وحملهم على مغادرة فلسطين ليستوطنها الخزر الغزاة ..

إن الديكور الجديد ، للمسرحية ، المجزرة الجديدة ، هو أن تمارس السلطة الممثلة ، فى الضفة الغربية دورا شبيها بالدور الذى كانت تمارسه سلطات الانتداب البريطانى فى فلسطين ، وهى أن تمثل فى الظاهر سلطة القانون وحفظ النظام « الشرعية » ، بينما تلد فى

الخفاء الذى يشبه العلن ، عصابات مسلحة ، لا تنتمى إليها رسميا ، ولكن أصلها معروف للجميع ، وعلى الأقل ، مصدر تسليحها ، وفى حالة الاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية ، فالقرابة أشد وضوحا ، بين جيش الاحتلال « وأولاده » من العصابات المسلحة أو المليشيات ، مما كان عليه الوضع أيام الاحتلال أو الانتداب البريطانى ، وإن كان عمدة الخليل اليهودى الجديد ، سوف يغبط نفسه ، وهو يحفظ النظام والقانون فى الخليل ، على الطريقة ذاتها التى كان « يحفظه » بها المنتدب البريطانى الأول على فلسطين ، وكان – بالصدفة أيضا – هكذا قيل – يهودياً اسمه هربرت صموئيل !

وبدون « مليشيات » معترف بها رسميا من قبل سلطات الاحتلال ، لن يعجز « الأفراد » المسلحون عن الإرهاب وإيقاع المجازر المطلوبة ؟ ما دام حق حمل السلاح مقصورا على المستوطنين اليهود ، بينما تعتبر حيازة السلاح لدى مواطن عربى من أرض فلسطين المحتلة ، جريمة عقوبتها السجن أو النفى من الأرض دون أى حق فى العودة إليها مطلقا بعد ذلك ما دامت دولة إسرائيل قائمة فوق هذه الأرض ..!

إن المجزرة فى الطريق ، بمليشيات أو بدون مليشيات ، فمن الذى يمكن أن يتحرك ليوقفها ؟ !

* * *

هل يوقفها ساسة الولايات المتحدة الأمريكية ، وهم أقدر الناس على ذلك عن طريق الضغط على الحكومة الصهيونية ؟! إن دلائل الأمور تشير إلى عكس ذلك ، بالرغم من التصريحات المتتابعة عن « اعتقادهم » بأن إقامة المستوطنات اليهودية فى الأرض العربية المحتلة تعرقل « تحقيق السلام » فى المنطقة ، ولكنهم لا يتورعون عن الحيلولة دون مجلس الأمن وإصدار قرار يندد فيه بعدم شرعية بناء أمثال تلك المستوطنات ، وغير بعيد أن وصف نائب رئيسهم — جورج بوش — السكان العرب بأنهم « كائنات فلسطينية » ! ولعله يحلم الآن برؤية الغزاة الصهاينة يعيدون أمجاد « اليانكى » فى الفتك بالكائنات الهندية الحمراء ، وتسجيل « غزواتهم » المظفرة ، بسلخ الرءوس وقطع المذاكير ، ثم يتحدثون بعد ذلك عن حقوق الانسان !

هل يوقف السوفييت تلك المجزرة ؟! .. نعم إن فى استطاعتهم أن يساعدوا العرب فى التصدى لتلك الجريمة المستمرة ، وذلك بمنع يهودهم الخزر من الهجرة تماما إلى الدولة الصهيونية ،

مهما تكن ضغوط الولايات المتحدة الأمريكية والصهيونية الدولية عليهم ، بدعوى « حقوق الانسان » ، حتى يتم على الأقل تسوية الوضع فى المنطقة على نحو يكفل العدالة لجميع شعوب المنطقة ، وفى مقدمتها الشعب الفلسطينى الذبيح الطريد ، الذى كتب عليه أن يتحمل سخائم العلاقات الداخلية بين الطوائف الدينية فى المجتمعات الأوربية ، وفى مقدمتها المجتمع الروسى ذاته ، قبل الثورة على الأقل ..! فى استطاعتهم أن يرفعوا ضغط الصهيونية العالمية وحلفائها عن كاهلهم ، ويحرروا مواطنيهم اليهود الروس من تأثير الدعاية الصهيونية ، عن طريق إعلان الحقيقة عن تاريخهم ، وتاريخ المادة البشرية التى تشكلت منها الحركة الصهيونية فى روسيا القيصرية وبولندا وشرق أوربا عامة ، حيث لم يكونوا قط أبناء إسرائيل المشردين فى تلك البلاد ، ولكنهم سلالة دولة الخزر التى كانت قائمة فى القوقاز والقرم وقسط من شرق أوربا حتى وسط ألمانيا ، وذلك قبل أن تقوم روسيا ذاتها ، وكانت دولة يهودية الديانة وليس العرق ، أو الهوية القومية كما تزعم الصهيونية فى دعواها ، وكانت مبادرة السوفييت للاعتراف بالدولة الصهيونية فور إعلانها فى فلسطين استسلاما غير مبدئى لتلك الدعوى ، يدفع السوفييت ثمنه الآن بالولاء المزدوج

الذى تبثه تلك الدولة العنصرية المغتصبة ، فى بعض المواطنين السوفييت من أتباع الديانة اليهودية ! ومن المناسب الآن للسوفييت أن يتوقفوا عن الاستسلام غير المبدئى للدعاوى الصهيونية ..!

نذكر الأمريكان والسوفيت وننسى أنفسنا « وضمائرنا » نحن العرب !!

إن خشبة المسرح التى سوف تدور فوقها المجزرة – وليس الديكور فحسب – هو ما آل إليه حالنا من فرقة وضياع وخذلان ، حتى إن الفلسطينيين يقتل بعضهم بعضا ، ليس فى لبنان وحدها ، بل أيضا فى الأرض المحتلة ذاتها ، حيث أصدر مجلس أمناء جامعة بيرزيت قرارا كانت تتمناه سلطات الاحتلال الصهيونية ، بإغلاق الجامعة بسبب المعارك الدامية بين الفرق السياسية المختلفة لطلبتها ! أما فى لبنان فالكل ضالع فى المهزلة التى أوشكت ان تعصف بمجد الصمود البطولى للمقاومة الفلسطينية فى بيروت فى الصيف الماضى ، ولولا جماعات بائسة من اللاجئين الفلسطينيين اعترضت بأجسادها مواقع التراشق بالمدافعية بين القوى الفلسطينية المتناحرة ، لما علمنا مدى ما كانت تفعله بأنفسها نيابة عن العدو الصهيونى ، مع تراشق بالاتهامات شمل دوائر عربية أو محسوبة على العرب ، بأن

دورها كان توسيع هوة الشقاق بدلا من رأب الصدع حرصا على تماسك المقاومة الفلسطينية التى أصابها ما أصابها فى بيروت فى الصيف الماضى ، وقضى على فريق كبير منها بالخروج إلى طائفة من « المنافى » العربية أكثر بعدا بكثير عن ديارها ، وعن أرض المعركة ، وعن القدرة حتى على مجرد إزعاج العدو الصهيونى المغتصب لبلادهم !

ناهيك عن الوضع اللبنانى ذاته .. لقد أصبح التشرذم الطائفى صفة لاصقة به ، وكل طائفة تحمل السلاح فى مواجهة الطائفة الأخرى : الموارنة ، والدروز والسنة والشيعة والعلويون .. الخ ، بعد أن كانت الصيغة اللبنانية فى « التعايش الطائفى » هى النموذج الذى يحلم به الفلسطينيون لسائر بلادهم ، أوشك انسحاب جيش الاحتلال الإسرائيلى من بعض المناطق ، طبقا لمخططهم فى البقاء الدائم على جزء من أرض لبنان ، يمثل خطرا من غياب « القانون » والقوة القادرة على حفظ النظام ومنع التصادم المسلح بين مختلف الطوائف اللبنانية ! وبالمناسبة ، فإن المذبحة التى تعد فى الخليل لسكانها العرب ، يحتمل أن تتم « تغطيتها » بمذبحة مواكبة فى الجنوب اللبنانى على يد مليشيات مارونية ، للفتك بمن فيه من اللاجئين الفلسطينيين أيضا . وقد بدأ بالفعل اقتتال فى غرب بيروت ،

موضوعه هو إقامة بعض اللاجئين اللبنانيين من الجنوب من طائفة الشيعة ، فى الحى اليهودى المهجور هناك !

لك الله إذن يا مدينة الخليل ، ويا سكانها العرب المهددين بالطرد والتشريد والقتل والتدمير ، ما دامت تلك حالنا نحن العرب ، .. لقد كنت أحلم مع عدد من الأصدقاء العرب — كما ذكرت فى مقال سابق — بتشكيل حركة دولية للدفاع عن أرض إبراهيم ، أرض العرب ، والرسالات السماوية ، ضد غزاتها من الخزر « الأشكناز » الذين لا يمتون للمنطقة بصلة من حيث الأصل أو التكوين التاريخى ، وليسوا واحدا من شعوبها يعود إليها كما يزعمون ، بل هم غزاة يتخذون العقيدة ستارا كما اتخذ قرناؤهم الأوربيون أيضا من الصليبية ستارا فى الماضى ، لغزو ذات الديار المقدسة .

كنا نحلم بتكوين جماعة من ذوى الضمائر الانسانية الحية لكشف الحقائق عن زيف الدعاوى الصهيونية بالتدليل على تكوينهم البشرى وهويتهم القومية الحقيقية ، التى يتنصلون منها ويطمسونها جريا وراء أطماعهم وأطماع سادتهم الاستعماريين فى بلادنا .

كنا نحلم بحركة للدفاع عن أرض إبراهيم من حيث هى أرض العرب جميعا ، فهم غالبية أبنائه إلا قلة من بنى إسرائيل ، ليس من

بينهم بالقطع هؤلاء الأفاقون الغزاة المجلوبون من القوقاز الروسى وشرق أوربا ، مثل أبناء عمومتهم المماليك فى الماضى على أيدى من حكم بلادنا من سلاطين الترك والكرد والعجم ، لولا الإسلام الذى شملهم مع العرب وبفضل العرب ، فصاروا منا وعلينا ، وبالمناسبة أيضا فلولا الإسلام والعرب ، وطرقه بلاد الخزر فى أيام بنى أميه وتداخله معهم حربا وتجارة ، لما وصلت اليهودية إلى هناك ولظلوا على وثنيتهم ، يبيعون أبناءهم وبناتهم فى سوق الرقيق ، فهل يعودون الآن ليزعمو أنهم أبناء المنطقة ، وأصحاب « الدين الأصلى » ، ويبيعون لنا فى آخر الزمان بضاعة بارت من قديم عندنا ؟!

كنا نحلم بالدفاع عن كل أرض إبراهيم ، فهل نحلم الآن بالدفاع عن قبره ومجاوريه ؟!

* * *

١١ – سقط سهواً من التاريخ :
المماليك الصهاينة ... هل هم أبناء عمومتنا (*)

مثلما يحدث أحيانا فى صفحة الوفيات بالصحف اليومية ، حينما نطالع استدراكا على نعى أحد المتوفين المعلن عن وفاتهم ، يبدأ بعبارة « سقط سهوا من نعى فلان الفلانى » ، أنه قريب فلان وفلان . إلى آخره . وقد يكون المستدرك الذى « سقط سهوا » من أقرب أقرباء المتوفى ، مما يشى بأن السقوط لم يكن سهوا ، وإنما كان متعمدا كل التعمد ، كضرب من المكيدة من جانب بعض أقارب المتوفى لآخرين منهم ، بسبب حزازات قديمة أو طارئة بين الفريقين .. مثل ذلك ما نطالعه أحيانا فى بعض ، أو كثير من كتب التاريخ والسياسة ، أن يسقط منها سهوا ، أو عمدا ، ذكر شعب بأسره ، وهو شعب الخزر !

من ذلك – على سبيل المثال – أننى فتشت دائرة معارف أمريكية ، مكونة من عشرين مجلدا ، اسمها « دائرة معارف كل رجل » فلم أجد بها مادة تحت كلمة الخزر ! كأنما ليس من المفروض أن

(*) نشرت بمجلة الهلال فى أكتوبر ١٩٨٣

يعرف الرجل – العادى على الأقل – شيئا اسمه الخزر ، من بين مئات الألوف من المعارف الأخرى أما دائرة المعارف البريطانية الشهيرة الباذخة ، فقد أفردت فصلا طويلا عن الخزر ، ولكنها قالت عنهم ، على سبيل التهوين من شأنهم ، إن كل القيمة التاريخية لهذا الشعب ، هو أنه نجح فى صد الغزو الإسلامى لمنطقة القوقاز فى العصور الوسيطة ! وذكرت عنهم بالطبع الحقيقة المعروفة أنهم دخلوا فى اليهودية ، ولم تذكر أنهم آباء الغالبية العظمى من يهود العالم ، وخاصة فى أوربا والأمريكتين ! بل لم تذكر أنهم أصل الدولة الروسية المعاصرة ، بينما فى ذات « الانسيكلوبيديا » ، فى مادة روسيا ، وللعلم فالمواد المختلفة يكتب كل منها كاتب مستقل ولكن لدائرة المعارف هيئة تحرير موحدة . أعود فأقول : إنه فى مادة روسيا نجد أن أصل الدولة الروسية ، قد نشأ حول مدينة كييف « عاصمة أوكرانيا حاليا » ، التى كانت مجرد « خاقانية » ، أى ولاية فى دولة الخزر ! هل يمكن لشعب أقام أول دولة تستحق هذا الاسم ، فى إحدى القوتين العظميين فى العالم حاليا ، أن يوصف بأنه يكاد يكون عديم القيمة التاريخية ؟ وهل الشعب الذى تناسل منه اليهود الأوربيون والأمريكيون ، بالدور الهائل الذى يلعبه فى حاضر المجتمعات

المعاصرة ولعبه فى ماضيها القريب ، بما فى ذلك تأسيس الحركة الصهيونية ، وإقامة دولة باسم إسرائيل على أرض فلسطين ، يعتبر شعبا ذا قيمة تاريخية ثانوية ؟!

من ذلك أيضا ،.أننى طالعت كتابا بالإنجليزية عن تاريخ الاتحاد السوفييتى مطبوعا هناك ، فوجدته يبدأ من مرحلة تغلب القياصرة على التتر ، وإقامة الدولة التى تحمل اسم روسيا ، ولا شئ عن التاريخ السابق على ذلك ، بما فى ذلك مرحلة حكم الخزر ، أيام كانت روسيا ، على حد تعبير كتاب آخر : يحكمها « قيصر يهودى » [1] ، وفى الواقع لم يكن يسمى « قيصر » ، وإنما كان يسمى « خاقان » [2] أى ملكا بلغة الخزر والترك ، وهم أبناء عمومة أو على الأرجح جنس واحد كما تحدثنا كتب التاريخ العربية . ولم تكن الدولة تحمل اسم روسيا ، بل كان يطلق عليها اسم « خزريا » ، تبعا

---

(١) « تدهور اليهودية فى عصرنا الحاضر » ، لموشى مناحم .

(٢) ما يزال السوفيت حتى الآن يسمون الحاكم الأعلى لبلادهم ، وهو حاليا السكرتير العام للحزب الشيوعى باسم « الخازان » ، على حد ما روى عبد الملك خليل ، وهو يعرف الروسية ، على صفحات الأهرام ، فهل تكون هذه الكلمة هى النطق الروسى لكلمة الخاقان ؟!

لاسم الجنس الغالب أو الحاكم ، ثم سميت روسيا ، وسمى حكامها قياصرة ، حينما تغلب الروس على الخزر . كانت « خزريا » اليهودية صديقة لبيزنطة ، وبين « خاقاناتها » وحكام بيزنطة المسيحين مصادرات ، حتى أن أحد قياصرة بيزنطة كان يعرف باسم « ليو الخزرى » لأن أمه كانت بنت ملك الخزر ، ولكن الأمراء الروس الذين ثاروا فى كييف على ملوكهم الخزر ، اعتنقوا المسيحية فحالفتهم بيزنطة وأعانتهم على قهر الخزر وتولى حكم البلاد بدلا منهم وإطلاق اسم روسيا عليها ، حتى إذا ما سقطت بيزنطة فى أيدى العثمانيين اعتبرت روسيا نفسها وريثة بيزنطة وشرع حكامها يسمونها باسم روسيا المقدسة ، واتخذوا لها ذات الشعار البيزنطى ، وهو النسر ذو الرأسين ؛ حتى سقط حكم القياصرة بالثورة البلشفية عام ١٩١٧ .

دائرة المعارف اليهودية كانت أشرف وأصدق من كل من دائرتى المعارف الأمريكية والبريطانية المشار إليهما فاليهود لا يحبون أن يخدعوا أنفسهم وإن كان يحلو لهم دائما ان يخدعوا الآخرين ! فقد ذكرت فى مقال سابق ما نشرته دائرة المعارف اليهودية عن الخزر واعتناقهم اليهودية ، فى عصر الدولة العباسية ، وذلك استنادا منها إلى المصادر العربية التاريخية التى لا يخلو أحدها من ذكر

هؤلاء القوم حيث كانت بينهم وبين العرب حروب وتجارات ، ودخل بعضهم فى الإسلام قبل أن يقرر ملوكهم اعتناق اليهودية .

وذكرت أيضا – أى دائرة المعارف اليهودية – أن يهود روسيا وبولندا ، وهما من أكبر معاقل اليهود الأوربيين وفيهما نشأت الحركة الصهيونية – يمكن اعتبارهم من بقايا دولة الخزر وقبائلهم !

كتاب آخر ، اسمه « تاريخ الشعب اليهودى ، من تأليف ماكس مرجليوس وألكسندر ماركس ، يتضمن فصلا موجزا عن الخزر ، واعتناقهم اليهودية فى القرن الثامن أو التاسع المسيحى ، ويفتخر بأنهم كفوا عن بيع أولادهم فى سوق الرقيق « هكذا كانوا يفعلون ! » بعد دخولهم فى اليهودية ، ويضيف كيف دام ملكهم قرابة قرنين فى القوقاز ، وكيف أن القوم قد ظل يعرف باسم خزريا وقتا طويلا بعد سقوط دولتهم فى عاصمتها « إتيل » على ضفاف الفولجا ، ويذكر المراسلات التى تمت بينهم وخاصة فى عهد ملكهم يوسف واليهود السفارديم فى الأندلس « وهم من كانوا يعتبرون اليهود الأصلاء » ، ولكنه حينما يتحدث فى فصل آخر بالتفصيل عن يهود روسيا وبولندا فى العصور الحديثة والمعاناة التى لقوها ومهدت لظهور الحركة الصهيونية فى بلادهم وهجرتهم الواسعة إلى أمريكا ، ينسى

أصلهم الخزرى تماما ولا يذكر منه حرفا ، أى يسقط آباءهم الحقيقيين « سهوا » والأرجح عمدا ، ليتحدث عن « بيت إسرائيل » المشتت والمضطهد فى كل مكان ! ليتفاءل ويستبشر فى نهاية فصوله لأن « أرض إسرائيل » أى فلسطين قد أصبح يحكمها يهودى ، هو المعتمد البريطانى أيام الانتداب عليها ، وهو الوقت الذى تم فيه تأليف الكتاب !

ما هو سبب ذلك الاغفال المتعمد ، أو غير المتعمد فى كتابات أخرى ، لصلة الخزْر باليهود المعاصرين ، وخاصة من جاء منهم من شرق أوربا ، وهم المادة البشرية للصهيونية المعاصرة ؟

لقد تداخلت فى ذلك عوامل عدة ، من بينها — على ما أتصور — ما فعله اليهود السفارديم أنفسهم ، بعد أن بلغهم دخول الخزر فى ديانتهم ، وأن مملكة يهودية أصبحت تقوم فى هذه الدنيا ، فى العصر الذى نروى أخباره . وقد ألف أحد أعلام اليهود السفارديم فى الأندلس ، وهو الشاعر يهوذا هاليفى ، كتابا بالعربية اسمه الخزرى ، تحدثت عنه دائرة المعارف البريطانية فى مادتها المشار

إليها عن الخزر [1] ، وفى هذا الكتاب راح يهوذا هاليفى يمجد الحدث الذى أدى إلى اعتناق ملوك الخزر لليهودية فى عز سطوة الإسلام والمسيحية من حوله ، ومما قاله فى هذا الكتاب : « إنه يمكن معرفة الرب عن طريق معرفة تاريخ بنى إسرائيل » ، أى أن الخزر بعد أن اطلعوا على التوراة التى تروى سيرة بنى إسرائيل اعتقدوا بالرب الذى يعبده بنو إسرائيل . إلى هنا والقضية معقولة يمكن تصورها ، فما الذى جعلهم بعد ذلك ينسون أصولهم ويزعمون أنهم هم بنو إسرائيل ، أو من بنى إسرائيل ؟

لقد راح اليهود السفارديم فيما أتصور يلتمسون لهؤلاء المتهودين الجدد نسبا فى التوراة يقربهم إليهم . ولما كانت عقائدهم تقول إن يافث بن نوح عليه السلام قد استوطن هو وأبناؤه القوقاز ، وهو أمر يعود إلى عهود بعيدة جدا عن إبراهيم عليه السلام وأبنائه من العبرانيين من نسل سام بن نوح ، فقد نسبوا يهود الخزر إلى « أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح » وغلبت لفظة الأشكناز ،

---

(١) أخبرنى الدكتور محمود مكى رئيس قسم اللغة العربية بآداب القاهرة أنه قد اطلع على ترجمة أسبانية لهذا الكتاب أيام كان يعمل فى مدريد .

أو الأشكنازيم ، باعتبارها اسما توراتيا ، على الاسم « العلمانى » للجنس ، وهو الخزر !

فلما جاءت نكبة دولة الخزر على يد رعاياها الروس الذين اعتنقوا المسيحية ، وآزرتهم بيزنطة لأنهم صاروا أقرب إليها من ملوكهم الأول ، بدأ القياصرة الروس فى حملاتهم على العقائد المخالفة يحرضون الرعاع من مواطنيهم المسيحيين على الخزر تحت شعار « اقتلوا اليهود أعداء الرب » . فوقع فى روع الفريقين أن هؤلاء فعلا هم اليهود المسئولون – طبقا للعقيدة المسيحية – عن واقعة صلب المسيح !

كان الأمر أشبه بمسرحية درامية تقمص فيها الممثلون أدوارهم ونسوا أنفسهم حتى سالت الدماء بينهم . وتصل المأساة إلى ذروتها المضحكة المبكية ، حينما نجد كاتبا روسيا « عظيما » مثل بوريس باستر ناك ، وهو يدافع عن يهود بلاده ويرفض الإساءة إليهم فى روايته المشهورة « دكتور زيفاجو » يصفهم بأنهم هم « شعب المسيح الحقيقى » !! وهم ليسوا بشعبه الحقيقى أو غير الحقيقى بصورة من الصورة ولكن ذلك لم يمنع الصهيونية الدولية من مكافأته على تلك الفرية التاريخية بإعطائه جائزة نوبل فى الأدب ، بينما معلوماته – إن صحت نيته ولم يتعمد الكذب – لا تعطيه الحق فى الحصول على « الثانوية العامة » فى تاريخ بلاده !

ومع زوال ملك الخزر ، شرعت بقاياهم البشرية فى المحيط الروسى المسيحى المعادى، تلتمس العزاء فى كتاب ديانتهم وهو التوراة ، بل ازداد معدل « تدينهم » باليهودية حيث من المعروف لدى كل من المصادر العربية واليهودية على السواء ، أن ممارساتهم الدينية بعد تهودهم كانت ما تزال تحمل الكثير من بصمات الوثنية ، وتبعد كثيرا عن أصول الديانة الموسوية . وبالتصاقهم بالتوراة ، ازدادوا اقترابا من فكرة الملك الموعود ، فى أرض الميعاد ، والمفقود نتيجة عصيانهم للرب ، وبالمقارنة بين ما أصاب ملكهم هم فى القوقاز ، وبنى إسرائيل القدامى فى فلسطين ، وجدوا فى تقارب الصورة مدخلا أو منزلقا إلى التماثل وكانت فكرة الشعب المختار الذى أصابه ما أصابه قديما ، إغراء كافيا بالرغبة فى الانتساب إليه ونسيان أصولهم الحقيقية . وخاصة وتعبير الأشكنازيم الذى أطلقه عليهم يهود السفارديم ، كان كافيا لتدليس حقيقة أصولهم الخزرية ، رغم أن واضعيه قد برئوا به من نسبتهم إلى إسرائيل !

فلما جاءت الصهيونية السياسية فى العصور الحديثة ، على يد هرتزل وأمثاله وأعوانه ، أصبح التدليس مقصودا ومتعمدا ولم يعد إسقاط ذكر الخزر وصلتهم الوثيقة بيهود روسيا وشرق أوربا ، يحدث

سهوا . بل عمدا ، حيث قامت النظرية الصهيونية على ادعاء أن يهود العالم كله ، هم قومية واحدة ، وهم شعب إسرائيل الذى تشتت فى أنحاء الأرض ، وقد سخرمن هذا الادعاء حاخامات اليهود فى بريطانيا ، أول ما بدأت الحركة الصهيونية ، وأصدر هرتزل كتابه المشهور عن « الدولة اليهودية » ، ولكنهم اضطروا إلى بلع اعتراضاتهم وإخفائها ، بعد أن شرعت الدوائر السياسية البريطانية ذاتها فى احتضان « المشروع الصهيونى » لتوافقه مع أغراضها الاستعمارية فى المنطقة العربية .

ولكن الأمر غير المقبول أن يقبل العرب ، فضلا عن أن يشاركوا فى استمرار هذا التدليس الذى يستخدم ستارا لايقاع النكبات المتوالية بالوطن العربى ذاته بدءا من الاستيلاء على فلسطين . وإذا كان من لا يعرفون يكونون عرضة دائما للوقوع فى « الخطأ المشهور » فلا يغفر « للعارفين » أن يجاروه ويهونوا من شأنه . من ذلك مثلا أن الدكتور عبد الوهاب المسيرى قد أصدر كتابا من جزءين عن « الأيديولوجية الصهيونية » ، لم يذكر فيه الخزر إلا فى سطر واحد ، قال فيه إنهم اعتنقوا اليهودية لكى يشاركوا اليهود فى سيطرتهم على التجارة العالمية ، وبفرض أن ما قاله صحيح فى تعليل

دخول الخزر فى اليهودية ، فإن بحثه الذى يدور عن يهود شرق أوربا وهم من نشأت الحركة الصهيونية فى صفوفهم كان ينبغى أن يتضمن إشارة واضحة إلى أصولهم غير الاسرائيلية ، وهى أنهم وسائر اليهود الأشكناز هم سلالة شعب الخزر القوقازى ، الذى لا يمت بصلة إلى المنطقة العربية التى ظهر فيها إبراهيم عليه السلام وأبناؤه طبقا لرواية الكتب المقدسة ، وأولها التوراة ذاتها .

والخطأ العلمى فى هذا الموضوع يفضى إلى أخطاء سياسية ، مثل ابتلاع حكاية « اليهود أبناء عمومة العرب » التى لا تصح إلا على قلة من اليهود الشرقيين أو السفارديم ولكنها لا تنسحب على معظم يهود العالم – وعلى رأسهم قادة الحركة الصهيونية – من اليهود الأشكنازيم من سلالة الخزر .

وممن وقعوا فى هذا الخطأ السياسى مؤخرا ، واحد من ألمع نجومنا السياسيين وهو الدكتور أسامة الباز وكيل وزارة الخارجية ، وذلك فى حديث مستفيض أجرته معه أخبار اليوم بتاريخ ٢٠ أغسطس الماضى حيث قال « إننا نعتبر اليهود أبناء عمومة يعيشون بين ظهرانينا » ، وهذا القول – كما قدمت – إن كان يصح على بعض اليهود الشرقيين الذين سخرتهم الصهيونية لمآربها الاستعمارية فى

بلادنا ، فهو لا يشمل بالقطع مناحم بيجين وأمثاله من قادة الصهيونية ، ومادتها البشرية الوافدة من روسيا وبولندا وسائر شرق أوربا ، لا يزالون يأتون بمزيد من هذا « الجلب » لاستيطان الأرض العربية المحتلة فى فلسطين وقريبا جدا فى جنوب لبنان الذى أزمعوا البقاء فيه ! إن هؤلاء القوم ليسوا من أبناء عمومة العرب بحال من الأحوال ، ولكنهم أبناء عمومة الجنس الآرى الذى اضطهدهم فى ألمانيا على عهد النازى . وأبناء عمومة المماليك الذين كانوا يجلبون إلى بلادنا فى العهد الأيوبى من منطقة القوقاز ذاتها التى أتى ويأتى منها هؤلاء القوم ، وكان منهم السلاطين الذين أوشك العز بن عبد السلام أن يبيع واحدا منهم فى سوق الرقيق . ومناحم بيجن ذاته ليس إلا واحداً من أشباه هؤلاء ، وإذا كان يفرض الآن سلطانه على فلسطين وما جاورها ، فهو لا يعدو أن يكون « مملوكا » للشركة اليهودية ، والصهيونية العالمية ، والامبريالية الأمريكية ، التى أجاد وصف التداخل بينها الدكتور فؤاد مرسى فى كتابه الباذخ عن « الاقتصاد السياسى لاسرائيل » ، وإن كان قد فاته هو الآخر أن يذكر أصولهم الخزرية ، حتى أوشك أن يصور نشأة الصهيونية فى روسيا وبولندا بأنها حركة ثورية فى الأصل ضد الاضطهاد القيصرى ،

كانت من بين الحركات التى مهدت لظهور الاشتراكية !! بينما هى فى حقيقة الأمر حركة فاشية ، نشأت كنقيض مباشر للثورة ، وللاشتراكية ، تستهدف الهرب منهما !

لقد خرجنا نحن العرب ، ومعنا قلة من شعوب العالم الثالث منهزمين فى مؤتمر دولى أقيم مؤخرا فى بداية شهر أغسطس الماضى حول قضية التمييز العنصرى ، حيث عجز المؤتمر تحت إرهاب الولايات المتحدة الأمريكية ، وحلفائها فى غرب أوربا عن اتخاذ قرار بإدانة الصهيونية ، باعتبارها حركة عنصرية . وذلك بالطبع يعود إلى سيطرة الدعوى الصهيونية على تلك المجتمعات وهو تصوير الحركة الصهيونية بأنها حركة قومية ، يعود بها شعب إسرائيل إلى أرضه فى المنطقة العربية ! ولابد لفضح كذب تلك الدعوى من فضح الهوية القومية الحقيقية لأصحابها ومن يتولون فرضها حتى الآن ، وإظهار حجم التدليس التاريخى ، الذى يتضمنه إقحام شعب الخزر المعروف أصله وفصله وتاريخ دخوله فى اليهودية – لمن أراد أن يعرف – ضمن السلالات التاريخية التى نشأت فى المنطقة العربية ، ومنها السلالة الإسرائيلية الحقيقية المذكورة فى الكتب المقدسة . والتى يصح عليها وحدها وصفها بالعبرانية والسامية . ومن تبقى من هذه

ليسوا إلا قلة معدودة من بين يهود العالم ، وغالبيتهم وخاصة يهود شرق أوربا والأمريكتين ، هم من سلالة الخزر ، من يعرفون حاليا باسم اليهود الأشكنازيم .

إن قمة العنصرية من أجل اغتصاب أوطان الآخرين واضطهادهم تتمثل فى هذا التدليس المتعمد ، الذى فرضته الصهيونية على عقول البشر بحكم ما تملكه من أدوات النشر والدعاية ، إلى حد اللعب فى المصادر العلمية ، أو التى توصف بأنها علمية ، على نحو ما بينت فى أول المقال . وعلينا نحن العرب - المضارين بجرائم الصهيونية التى لا تتوقف - أن نتصدى لفضح هذا التدليس وكشفه . وتحرير عقول البشر منه بدءا من عقولنا ذاتها !

* * *

١٢ – أين ذهب البديل السوفييتى للمشروع الصهيونى ؟ (*)

بعد أيام تحل الذكرى الخامسة والستون لتصريح بلفور ، الذى وصفه جمال عبد الناصر بقوله « لقد أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق » ، ويعنى بذلك بلفور وزير خارجية بريطانيا فى عام ١٩١٧ ، الذى أعطى حاييم وايزمان ، زعيم الحركة الصهيونية بعد هرتزل ، وعدا بتحويل فلسطين إلى وطن قومى لليهود . ولم يكن لبريطانيا حق فى ملكية فلسطين لتتصرف فيها ، إلا أنها كانت تحتلها ، ولم يكن لوايزمان وأمثاله من يهود روسيا وشرق أوربا « استحقاق » قومى من أى نوع فى فلسطين ، إلا أنهم كانوا يعتنقون ديانة ظهرت فى تلك المنطقة منذ آلاف السنين .

ولم يكن من قبيل المصادفة أن يصدر وعد بلفور فى ذات الأيام التى شهدت الثورة البلشفية فى روسيا ، وثورات مماثلة تلتها

(*) نشرت بجريدة المساء فى ٣٠ أكتوبر ١٩٨٢

فى شرق أوربا ، فبالإضافة إلى الأغراض الاستعمارية فى المنطقة ، التى دعت بريطانيا إلى العمل على إقامة كيان دخيل فى وسط الأرض العربيه لمنع توحدها وإخضاعها بشكل متصل للسيطرة الأجنبية ، كانت ألحكومة البريطانية والدوائر الاستعمارية العالمية أهداف أخرى تتصل بالمادة البشرية للحركة الصهيونية ، وهم يهود الخزر فى روسيا وشرق أوروبا ، الذين لا يمتون بالنسب إلى إسرائيل النبى ، ولا بالموطن إلى فلسطين ، وإنما كل ما هنالك أن آباءهم قد اعتنقوا اليهودية منذ حوالى ألف عام ، بعد زوال الدولة اليهودية فى فلسطين بأكثر من عشرين قرنا ، مثلما اعتنقت الأجناس المحيطة بهم من القوقازيين ديانات سماوية أخرى كالمسيحية والإسلام .

وقد عبر تشرشل عن تلك الأهداف الأخيرة بقوله « إن علينا – أى على بريطانيا الاستعمارية – أن نؤيد الصهيونية لنعطى اليهود أملا قوميا ، يكون بمثابة طريق ثالث خلاف الخضوع للاستبداد القيصرى ، أو الانضمام للثورة البلشفية » .

ولقد كان اليهود الروس من أنشط العناصر الثورية فى روسيا القيصرية بسبب الاضطهاد الواقع عليهم ، وقد اشتركوا فى الحركة الثورية فى بادىء أمرها من خلال تنظيم عرف باسم

« البند » ، ويعنى اتحاد العمال الاشتراكين اليهود الروسى . وبعد تشكيل الحزب الاشتراكى الديمقراطى الروسى فى أوائل القرن ، وهو الذى انقسم فيما بعد إلى بلشفيك ومنشفيك ، أصر لينين على حل حل تنظيم البند واندماجه فى الحزب الثورى ، تعبيرا عن اندماج اليهود فى المجتمع الروسى وهو أحد أهداف الحزب الثائر على الاستبداد القيصرى .

وخلال الهزائم والنكسات التى تعرضت لها الحركة الثورية الروسية قبل انتصارها فى عام ١٩١٧ ، وخاصة هزيمة ثورة ١٩٠٥ تحول كثير من اليهود من أعضاء البند القدامى بالفعل إلى الصهيونية بدلا من متابعة النضال الثورى ضد القيصرية فى روسيا . وكان ذلك موقفا عجيبا من أناس يعتبرون اشتراكيين علمانيين أن يتحولوا من حلمهم الثورى بحكومة عمالية إلى بناء دولة عنصرية تقوم على الدين فى بلد أجنبى ! وذلك هو مصدر الظواهر الشاذة مثل تعاون المستدروت ، الذى يعتبر امتدادا للبند فى فلسطين من حيث هو اتحاد عمالى يهودى ، مع المليونير اليهودى الفرنسى روتشيلد ، فى إقامة المزارع الجماعية اليهودية فى فلسطين . وكان من طبيعة الأمور أن يفقد نزعته الدولية باقتصاره على أعضائه من اليهود ورفضه انضمام

عمال من عرب فلسطين إليه ، ومن عناصر البند الذين رحلوا إلى فلسطين بعد ثورة ١٩٠٥ كانت أم الجنرال الإسرائيلى موشى ديان .

وبعد انتصار الثورة البلشفية فى عام ١٩١٧ ، واجهت الحكومة السوفيتية مشكلة تحويل اليهود إلى أعمال إنتاجية ، حيث كان عدد كبير منهم يعمل فى مجالات التجارة والسمسرة وهى أعمال لا تجد لها سوقا إلا فى المجتمع الرأسمالى . وأصبح كثير منهم متعطلين بعد الثورة . لذلك اتجهت الحكومة السوفيتية إلى توطينهم فى أراض صالحة للزراعة ، وفى مواجهة الإغراء الصهيونى بالهجرة إلى فلسطين . والإلحاح على فكرة وطن قومى لليهود ، أصدرت هيئة الرئاسة للجنة المركزية التنفيذية للاتحاد السوفيتى مرسوما بتخصيص جميع الأراضى الخالية فى منطقة بيروبدجان الواقعة فى شرق سيبيريا للمستوطنات اليهودية المتجاورة ، كما منحت المنطقة صفة « دائرة قومية يهودية » وأشارت الفقرة الخامسة من المرسوم إلى أن « التوطن اليهودى إذا سار فى المنطقة بنجاح فقد تنشأ فيها دولة ذات حكم ذاتى » وكان تاريخ صدور هذا المرسوم فى مارس عام ١٩٢٨ وعرف باسم تصريح كالينين – رئيس الدولة السوفيتية فى ذلك الحين – على سبيل المضاهاة بتصريح بلفور المشهور .

وقد انقسم الرأى العام اليهودى – ليس فى روسيا وحدها – بل فى العالم كله حول هذا المشروع ، ففى الوقت الذى تحمس له كثير من اليهود فى العالم ، بما فى ذلك جمعيات يهودية أمريكية ، قدمت أموالا طائلة لتوطين اليهود فى تلك المنطقة التى تعادل مساحتها نصف مساحة بريطانيا العظمى ، وتضم إلى جانب الأرض الزراعية ثروات معدنية كبيرة ، مما يبشر باقامة مجتمع زراعى صناعى يعتبر بمثابة حل نهائى لمشكلة اليهود الروس وسواهم فى شرق أوروبا : فى ذات الوقت هاجمه غلاة الصهيونية واعتبروه انحرافا عن الحلم الصهيونى بالاستيلاء على فلسطين . أما حاييم وايزمان رئيس الحركة الصهيونية فقد اتخذ موقفا يتسم بالخبث والدهاء حيث أعلن تأييده للمشروع ، ثم وصفه بأنه محطة للوصول إلى .. فلسطين !

وإزاء التعقيدات الإدارية والصعوبات التى تلازم دائما إنشاء مجتمع جديد ، كما حدث فى فلسطين ذاتها حينما بدأ الاستيطان اليهودى فيها ، نجحت الصهيونية فى فرملة المشروع السوفييتى لتحويل بيروبيدجان إلى وطن قومى لليهود . بل أغرت كثيرا من الأفراد والعائلات اليهودية التى استوطنتها بالهجرة منها ، والعودة منها إلى مواطنهم الأصلية فى القرم أو أوكرانيا ، أو الهجرة إلى أمريكا

أو منسطين . بحيث لم يبق من أثر ظاهر للوجود اليهودى فى بيروبيدجان إلا اسم محطة السكك الحديدية مكتوبا باللغة اليديشية ، وهى لغة اليهود فى شرق أوروبا ، وتعتبر مزيجا من العبرية واللغتين السلافية والألمانية ، فى الوقت الذى ازدهرت فيه المنطقة بتوطن روس أخرين فيها لم يكونوا من اليهود .

وقد دفع اليهود ثمنا غاليا لرفضهم التوطن فى تلك المنطقة وإصرارهم على البقاء أو حتى العودة إلى مواطنهم الأصلية فى القرم أو أوكرانيا ، التى ضاقت أرضها الزراعية عن استيعابهم فبعد ثلاثة عشر عاما من بدء مشروع بيروبدجان اجتاحت القوات النازية روسيا واحتلت جنوبها كله بما فى ذلك أوكرانيا والقرم ، وفتكت بالملايين من اليهود الذين كانوا هناك .

واليوم بعد أن نزح أكثر من مليونين من هؤلاء اليهود الخزر إلى فلسطين حيث أقاموا دولتهم الصهيونية نراهم يكررون ذات المذابح النازية فى العرب الأبرياء من سكان فلسطين وجاراتها العربية دون أن يكون لهم يد فى مأساتهم سواء على يد القياصرة الروس أو النازيين الألمان ، فهل يظنون أن التاريخ سوف يسامحهم على ما اقترفوه ، ومصير الطغاة الذى أوقعوا باخوتهم النكال من قبل ماثل أمام أعينهم !

غير أن كلمة تستحق أن توجه للاتحاد السوفييتى الذى قبل بهزيمة مشروعه أمام المعارضة الصهيونية ، إلى حد تأييده قيام الدولة الصهيونية فى فلسطين ، عام ١٩٤٨ : ألا يرى أنه هو الآخر يدفع ثمنا فادحا مثل اليهود ، حينما تنوى الصهيونية سلبه من بعض أبنائه وكثير منهم علماء ويشغلون مراكز هامة فى البناء الصناعى والعسكرى للدولة السوفيتية ، بتحريضهم على الهجرة إلى فلسطين واستيطانها ، وإفقاد الباقين منهم ولاءهم للدولة السوفيتية فى الوقت الذى أصبحت فيه الدولة الصهيونية قاعدة استراتيجية لخصوم السوفييت ، وهم الأمريكان ؟ أما كان الأولى به أن يشهر مشروعه من جديد فى الأمم المتحدة عند بحث قضية فلسطين واليهود ، أو على الأقل يشهره حاليا فى وجه دعاة الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتى إلى الأرض العربية المحتلة فى فلسطين ؟!

١٣ - الجنس الخزرى وليس السامى ... يا أبا عوف ! (*)

فى « المساء الاسبوعية » ، الماضى ، كنت بمعرض الحديث عن حرية نقد المشاهير من الساسة والكتاب والمفكرين ، ولكن هذا الحديث لم يعجب كاتبا يرى أن المشاهير ينبغى أن لا يلحق بهم غبار النقد ، بحكم ما بذلوا من جهد ، وسهر الليالى حتى وصلوا إلى ما حققوه من شهرة ! ولا على أن أعقب على تلك الحجة الظاهرة الوهن بل أتحول إلى حديث آخر هو : هل لو كان « المشهور » معنى من المعانى ، هو خطأ فى حد ذاته وليس شخصا ، فهل نعفيه هو الآخر من النقد ، مراعاة لما أحرزه من شهرة ؟!

وأتوجه بحديثى هذه المرة إلى رجل عاقل ، أعتد كثيرا بصداقته ، وهو الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى ، وأستأذنه فى أن أناقش عبارة وردت فى مقاله الباذخ ، الذى أنشأه فى أهرام

(*) نشرت بجهدة المساء فى ٢٥ سبتمبر ١٩٨٢

يوم الثلاثاء ٢١ – ٩ ، موضوعه هو المذبحة الرهيبة التى وقعت بالفلسطينيين فى بيروت .

يقول الأستاذ الشرقاوى فى معرض المقارنة بين هتلر وبيجين :
« كان هتلر مندفعا يهوى السيطرة يرى أن الجنس الآرى فوق الأجناس ويجب أن يسود العالم وأن ألمانيا فوق الجميع » .

« ويرى بيجين أن الجنس السامى هو أرقى من الأجناس الأخرى ويجب أن تسود إسرائيل » .

موضع المناقشة هى حكاية الجنس السامى هذه : هل يؤمن بيجين حقا بتفوق الجنس السامى ؟ وقبل هذا السؤال : هل ينتمى بيجين حقا إلى هذا الجنس ؟

تلك دعواهم فحسب ، يا أبا عوف وذلك هو الخطأ المشهور ، الذى يحرص الصهيانية على أن يستقر فى الأذهان : أن كل يهود العالم هم ساميون من بنى إسرائيل ، والحقيقة التاريخية خلاف ذلك بالمرة .

فالساميون من بين يهود العالم ، هم قلة ضئيلة لا تكاد تبلغ نسبتها ٥٪ من مجموعهم ، وهم من اليهود الشرقيين ، وإن كان

بعضهم ممن اعتنقوا اليهودية من بعض القبائل العربية ، من غير بنى إسرائيل .

أما الأغلبية العظمى من يهود العالم وتبلغ نسبتهم حوالى ٩٠٪ منهم ، فهم ينتمون إلى جنس موقازى يسمى بالخزر ، كان يعيش فى المنطقة التى تقع ما بين بحر الخزر أو بحر قزوين والبحر الأسود ، فيما يعرف الآن باسم جنوب روسيا .. وقد اعتنق آباؤهم الديانة اليهودية – بعد أن كانوا وثنيين – فى عصر متأخر جدا بعد زوال ملك إسرائيل القديم بزمان . كان ذلك بعد ظهور كل من المسيحية والإسلام وفى عهد كل من هارون الرشيد ، وشارلمان ، ولم تكن لهم أية علاقة من الناحية العرقية باليهود الشرقيين ، أو بنى إسرائيل ، كما نعرفهم نحن فى تاريخ منطقتنا . ويقال إن السبب فى اعتناقهم اليهودية أن ملك الخزر ، أو « الخاقان بولان » كما كان يسمى ، قرر اعتناق اليهودية لكى يتميز عن كل من الدولتين العباسية الإسلامية ، ودولة بيزنطة المسيحية ، وفى ذات الوقت يعطى ديانة محترمة لشعبة ، بعد أن بدأ كثير من أفراد هذا الشعب يتحولون إلى الإسلام أو المسيحية ، فخشى أن يضيع ملكه بسبب توجه ولاء رعيته إلى إحدى المملكتين الكبيرتين فى عصره .

ثم خلف بعد بولان – خاقان – آخر اسمه عبديه قرر أن لا يتولى ملك الخزر إلا من يعتنق الديانة اليهودية ، فاعتنقها البلاط كله ، ثم تابعهم جميع الشعب فى ما بعد ، وظلت خزريا – كما كانت تعرف هذه المملكة – دولة قوية لمدة قرنين من الزمان تحكم ما بين نهر الفولجا فى روسيا ، إلى الدانوب فى شرق أوربا حتى عصف بها الغزو التترى للمنطقة ثم قضى عليها القياصرة الروس بعد قيام دولتهم .

هذه الحقيقة التى تحرص الصهيونية على إخفائها عن العالم فى ادعائها أن كل اليهود هم بنى إسرائيل إنما هو لتعزيز دعواها فى اغتصاب فلسطين ولكن المراجع العلمية تذكرها بما فى ذلك دائرة المعارف اليهودية التى تروى قصة اعتناق الخزر لليهودية ، وتعترف بأن يهود روسيا وبولندا ، وهم عماد الحركة الصهيونية ، ومنهم وايزمان وجابوتنسكى وجولدا مائير وبيجين وغيرهم ، هم من بقايا مملكة الخزر القديمة فى تلك المنطقة . وأحيل الأستاذ الشرقاوى إلى كتاب صغير الحجم ، جليل القدر ، نشرته دار المعارف عن هذا الموضوع ، اسمه « امبراطورية الخزر » أو « القبيلة الثالثة عشر » ومؤلفه هو الكاتب اليهودى المجرى العظيم آرثر كوستيلر وفيه يشير إلى قول باحث يهودى أخر فى تل أبيب كان يدعى بولياك ، يقول فيه

إن المستوطن اليهودى الكبير فى شرق أوربا إنما هو فى حقيقة الأمر أبناء يافث فى مضارب سام ، ويعنى بذلك أن يهود روسيا وشرق أوربا ، الذين يعرفون باسم اليهود الأشكنازيم ، إنما هم - طبقا لذات العقيدة اليهودية - ليسوا - من سلالة سام بن نوح ، بل من سلالة يافث بن نوح - وظاهر من تسميتهم بالأشكنازيم ، أن اليهود الشرقيين أو السفارديم ، قد التمسوا لهم نسبا فى التوراة ، فنسبوهم إلى أشكناز بن جوهر بن يافث بن نوح ، الذى يعتقد اليهود أنه هو أبو الأجناس القوقازية .

ومما يذكر أيضا أن الجنس الآرى هو من ذات السلالة القوقازية ، فبيجين وأمثاله من الخزر هم أبناء عمومة هتلر ، وليس العرب الساميين كما يدعون ، وربما تكون الرابطة العرقية التى يتعصب لها هؤلاء اليهود هى هويتهم الخزرية القوقازية ، فهى التى تجمع بين اليهود الأشكنازيم المسيطرين فى إسرائيل ويهود جنوب الروس الذين يجلبونهم لاستيطان الأرض المحتلة والجالية اليهودية الكبرى فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أنها تشكلت من هجرة يهود الروسيا من الخزر إليها فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هربا من اضطهاد القياصرة لهم ، وقبل أن تنجح الصهيونية فى الاستيلاء على

فلسطين – والعصبية لهذا الجنس الخزرى هى فى الواقع ما يمارسه بيجين وأمثاله من غلاة الصهيانية ، وإن كانوا يقصرون دعواهم على الادعاء الكاذب بالانتساب إلى الشعب « المختار » من بنى إسرائيل !

وأعتقد أن كشف هذه الحقيقة ، هى من مسئوليات الفكر العربى لدحض أباطيل الصهيونية ، التى تقوم على خطأ مشهور هو الاعتقاد بأن كل يهودى هو من بنى إسرائيل .

أما ما جاء فى كلام الأستاذ الشرقاوى عن جبهة للشعوب العربية فأرجو أن أفرد لها حديثا آخر ، هى أجدر به .

١٤ – جبهة الشعوب العربية ..
أكثر من عبارة فى مقال ! (*)

والحديث هنا موجه مرة أخرى إلى الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى ، ليس بصفته كاتبا أو شاعرا فحسب ، بل بصفته أيضا مفكرا أو منظما سياسيا بحكم مسؤليته فى منظمة التضامن الآسيوى الافريقى ، والعالم العربى إلى هذا التضامن أحوج ، وبه أولى وأجدر .

لقد أشار الأستاذ الشرقاوى فى مقالة يوم ٢١ – ٩ فى الأهرام ، إلى « جبهة عريضة من الشعوب العربية » هى غير الحكام العرب الغارقين فى صراعاتهم الداخلية ، وعلى حد تعبيره « كما شغل حكام الأندلس من قبل ،وسقطوا وسقطت بهم ومعهم دولة الإسلام فى الأندلس » .

فأين هذه الجبهة ومن الذى يمثلها ؟ لقد انعقد مؤتمر القمة العربية فى فاس ، بعد الغزو الإسرائيلى للبنان واتخذ عدة قرارات لم يكن من بينها إعادة العلاقات مع مصر ، كبرى الدول العربية ،

(*) نشرت بجريدة المساء فى ٢ أكتوبر ١٩٨٢

بالرغم من كون أهم قرار اتخذ فيه هو الموافقة على مشروع الملك فهد لتسوية النزاع العربي الإسرائيلي وجوهر هذا المشروع ينطوى على الاعتراف بدولة إسرائيل باعتبارها إحدى دول المنطقة وبذلك يصبح الفرق بين الموقف المصرى الرسمى ، فى ظل اتفاقيات كامب ديفيد - مهما يكن الرأى فيها - وموقف معظم الدول العربية شكليا بحتا ، والخلاف بين الفريقين فى تفاصيل لا وزن لها بعد الاتفاق على الجوهر . فلماذا إذن تبقى القطيعة مع مصر ؟ ، إن الشعوب العربية - أو بالأصح الشعب العربى المفرق فى أكثر من عشرين دولة يأبى معظم حكامها توحيد صفوفه ، قد أصبح بحاجة الآن إلى وكالة تجمعه من الشتات ، كما كان لليهود وكالة جمعتهم رغم كونهم ليسوا شعبا واحدا وصنعت بهم دولة إسرائيل ، التى توصف اليوم بأنها القوة العسكرية الرابعة الآن فى العالم ، وهى تستند إلى تعزيز القوة الأولى فيه بينما عجز العرب عن مواجهتهم فى الحرب الخامسة لأنهم ليست لهم دولة جامعة ، والدول المتفرقة تبدو أكثر حرصا على تفرقهم . إن الوكالة العربية ، أو جبهة الشعب العربى ، تستطيع أن تتولى تنظيم كثير من أموره من أجل صنع المستقبل العربى ، الذى يبدو غامضا أمام الغزوة الصهيونية الشرسة وتوجهها إلى التوسع والسيطرة .

ليس من الضرورى أن تفرض هذه الجبهة نظاما للحكم فى البلدان العربية ولكنها تستطيع أن تقدم البرنامج الضرورى لاقالة الأمة المهددة فى مصيرها من عثرتها ، عن طريق الدراسة والتشاور الجاد ، البعيد عن العصبية الاقليمية ، أو التقيد بالموقف السياسى لإحدى الحكومات ، أو الوقوع فيما ترتب على تلك المواقف من شحناء أو مهاترات ، وتبدأ من الواقع المطروح الذى يعيش فيه العرب ، من أجل تطوير هذا الواقع ، أو بالأحرى الخلاص من مأزقه التاريخى الشديد الوطأة .

إن الأمة العربية بحاجة إلى الكثير من الجهد ، لكى يرتفع وجودها السياسى والعسكرى إلى مستوى مقارعة وجود عدوها المنظم .. وأول هذا الجهد هو جمع القوة المشتتة سواء فى الفكر أو المال أو الإنتاج . وليس من الضرورى انتظار الحكومات حتى تتحرك وهذا حالها ، بل ينبغى التحرك فى غير انتظار لموقف الحكومات ، إلا من حيث السماح للمواطنين بأن يعملوا من أجل أمتهم مالا يستطيع أو لا يريد أن يتولى أمره من هو فى موقع المسئولية الحكومية . لقد أنشأت أحزاب المعارضة فى مصر خلال الغزو الإسرائيلى للبنان ، ما أسمته لجنة المناصرة للشعبين الفلسطينى

واللبنانى والواقع أن الذى يحتاج إلى المناصرة ليس هذين الشعبين وحدهما ، بل الشعب العربى فى مجموعه وهو من تهدده الصهيونية المرتبطة باعتى القوى الاستعمارية فى العالم فى حريته ومستقبله .. ومناصرة الشعب العربى لن تأتى من خارجه ، بل من داخل صفوفه باعتباره شعبا واحدا . وأعتقد أن الأحزاب المعارضة وحدها ، تستطيع البدء فى إقامة تنظيم شعبى على المستوى العربى يكون هو جبهة الشعوب العربية أو الشعب العربى ، وربما كان الأثر الإيجابى الوحيد لأحداث الشهور الماضية هو عودة العلاقات المصرية مع منظمة التحرير الفلسطينية ، التى كانت هى والشعب الفلسطينى فى بيروت هى الضحية الأساسية للكارثة التى تلف العالم العربى بأسره . ومنظمة التحرير التى كتب عليها التفرق فى أكثر من قطر عربى ، يمكن أن تكون هى بمثابة النواة لجبهة الشعب العربى التى ندعو إليها من أجل البحث عن مصير أفضل !!

إن العبارة التى وردت فى مقال الأستاذ الشرقاوى تنطوى على معانٍ زاخرة ، غير أن معناها ومدلولها يتجاوز بها كثيرا أن تكون مجرد عبارة فى مقال ، بل نرجو لها أن تكون مفتاحا لطريق حان الوقت لكى نسلكه ، من حيث تسد الظروف جميع السبل الأخرى فى طريق أمتنا.

١٥ – كفانا يهودا .. يا فضيلة الأستاذ ! (*)

كنت أتابع بشغف بالغ ، الحوار الذى تجريه جريدة « الأهالى » مع الأستاذ عمر التلمسانى ، المحامى والداعية الإسلامى المعروف ، فأنا مولع بالحوار حين يكون بين أطراف متباعدة فى أصول تفكيرها ، كما أننى أقر عينا بكل تقارب يسفر عنه مثل هذا الحوار بين مختلف القوى الوطنية فى بلادنا العربية ، فى مواجهة الهجمة الاستعمارية الصهيونية الشرسة ، التى كانت آخر وقائعها ما جرى فى لبنان وفى عاصمتها بيروت .

ولكن عبارة فى كلام الأستاذ التلمسانى صدمتنى صدمة شديدة وهى قوله : وأنا كمسلم مستعد لتقبل ١٦ مليون يهودى من العالم فى فلسطين .. على أن يكونوا شعبا وليس حكومة ..!

وأنا لا أتهم الأستاذ التلمسانى فى وطنيته ولا عروبته ولا إسلامه ، ولكننى أدعوه أن يستغفر ربه بسرعة مما بدر منه ، وأدعو الله أن يغفر له ، فهو بدوره كان ضحية مثل كثير من

(*) نشرت بجريدة المساء فى أكتوبر ١٩٨٢

العرب والمسلمين لوهم كبير فظيع ، حرصت الصهيونية على أن يستقر فى الأذهان ، حتى يلعب أعدى أعدائها على أيديها من حيث لا يشعرون .

ذلك الوهم الكبير الفظيع ، هو أن كل يهود العالم أو معظمهم هم بنو إسرائيل ، الذين ورد ذكرهم فى الكتب المقدسة . وقلة عدد اليهود فى العالم ، بالقياس إلى أتباع الديانات الأخرى كالإسلام والمسيحية ، تعزز ذلك الوهم ، وتوحى بأنهم فعلا أبناء إسرائيل فى « الشتات » ، بعد أن ضاع « ملكهم » فى فلسطين منذ حوالى ثلاثين قرنا .

وقد اعتمدت المشاريع الصهيونية التى كانت تحاك فى الدوائر الاستعمارية منذ عهد نابليون على هذا الوهم ، وبدأ تنفيذ تلك المشاريع منذ مائة عام تقريبا ، حينما شرع اليهود من أدعياء إسرائيل ، وليس أبنائه ، فى بلد محدد ، وهو روسيا القيصرية ، فى تشكيل جمعيات « أحباء صهيون » للهجرة إلى فلسطين ، وتشكيل المستوطنات اليهودية فيها ، الأمر الذى تنبهت الحكومة العثمانية آنذاك إلى خطورته ، فأوقفت تلك الهجرات رسميا وإن كان التسلل من جانب العناصر الصهيونية لم ينقطع منذ ذلك الحين .

وكان أن حاول زعماء الصهيونية استنادا إلى هذا الوهم ، استمالة السلطان العثمانى إلى قضيتهم ، بإعلان استعدادهم لأن يصبحوا « رعايا مخلصين » للدولة العثمانية إذا عادوا إلى أرض ابائهم وأجدادهم فى فلسطين ! تماما كما يبدى الأستاذ التلمسانى ترحيبه بمجيئهم باعتبارهم شعبا وليس حكومة ، ولكن الدولة العثمانية آنذاك تنبهت إلى خطورة تلك الخدعة الصهيونية ، فأوقفت محاولات الهجرة اليهودية إلى فلسطين حتى وقع الانقلاب العثمانى على أيدى جماعة الاتحاد والترقى فى عام ١٩٠٨ ، فشرع يسمح من جديد بتلك الهجرة !

ولكن الحقيقة التى غابت عن الأستاذ التلمسانى ومثله عن كثير من الساسة والمفكرين العرب ، هى أن هؤلاء القوم من يهود روسيا على التحديد لم تكن تربطهم أيه صلة بالأرض المقدسة فى فلسطين ، إلا من حيث اعتناقهم إحدى الديانات التى ظهرت فيها ، مثلهم فى ذلك مثل مئات الملايين من المسيحيين الذين اعتنقوا ديانة ظهرت فى نفس المكان أى فلسطين ، ومئات الملايين من المسلمين ، الذين اعتنقوا ديانة ظهرت فى نفس المنطقة وهى جزيرة العرب .

هؤلاء اليهود فى روسيا ، حينما بدأت الحركة الصهيونية فى أواخر القرن الماضى ، كانوا فى أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم الحقيقية منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها . لم يكونوا من السلالة الإسرائيلية ، التى فقدت ملكها فى فلسطين ، فهذه السلالة لا تزيد نسبة أفرادها عن ٥٪ من معتنقى الديانة اليهودية ومعظمهم كانوا قد استقروا إما فى البلاد العربية أو حوض البحر الأبيض المتوسط عامة أما يهود روسيا ، فقد كانوا أبناء مملكة بل إمبراطورية ضخمة كانت تقوم فى تلك البلاد واسمها خزريا ، وعاصمتها كانت تعرف باسم إتل عند ملتقى نهر إتل المعروف حاليا باسم نهر الفرلجا ، ببحر قزوين الذى يعرف أحيانا باسم بحر الخزر ، إشارة إلى الجنس المغولى الذى يسكن حوله ، وقد امتد ملك هذه الدولة ليشمل القوقاز الروسى حاليا ، وأوكرانيا ، وبيلورسيا ، وبولندا والمجر ، وغيرها فى شرق أوربا ووسطها . وقد اعتنق شعب الخزر هذا الديانة اليهودية فى عصر متأخر جدا ، فى القرن السابع أو الثامن الميلادى ، متابعة لملوكه الذين خشوا أن يضيع ملكهم بين الدولة الإسلامية العباسية ودولة بيزنطة المسيحية كما ذكرت فى كتابات سابقة .

ولكن ملك هؤلاء القوم ، من الخزر المتهودين ، ضاع وإن لم

يخرجوا من أرضهم ، حيث زحف التتار على ملكهم ، ثم أعقبهم القياصرة الذين اعتنقوا المسيحية ، وأعطوا البلاد اسم روسيا ، ثم شرعوا يضطهدون مخالفيهم فى العقيدة سواء منهم التتر المسلمون أو الخزر اليهود ، ومن هنا بدأت الحركة الصهيونية فى دعوة بقايا هؤلاء الخزر إلى الهجرة إلى فلسطين بدعوى أنها أرض آبائهم وأجدادهم .. وهم أول من يعليم أنهم كذابون !! وليست تسميتهم باليهود الأشكنازيم إلا تمييزا لهم عن أبناء إسرائيل الحقيقيين ، فأبوهم الأكبر طبقا لعقيدة اليهود ذاتها ليس إسرائيل بن إسحق بن إبراهيم من سلالة سام بن نوح ، بل هو أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح الذى ورد ذكرة فى سفر التكوين ، ويعتقد اليهود أن السلالة القوقازية قد تناسلت منه .

ولكن الأستاذ التلمسانى – وقوعا فى وهم أن كل اليهود هم من بنى إسرائيل وأصلهم من فلسطين – يكرر ذات الخطأ الفادح الذى وقع فيه بعض الساسة العرب ، حينما قبلوا التفاوض مع الصهاينة على هذا الأساس فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الأولى ، وخدعهم منظر بن جوريون الذى جاء إلى الاسكندرية مرتديا طربوشا عثمانيا متظاهرا بأنه أحد أبناء المنطقة ، وأحد رعايا

« دولتها » العثمانية ، ليصبح بعد ذلك أول رئيس لوزراء الدولة الصهيونية التى قامت باسم إسرائيل !!

إن مليونين فقط من هؤلاء الخزر يقودون الدولة الصهيونية ، وقد رأينا ما فعلوه وما يزالون يفعلونه بالعرب ، بتأييد من ستة أو سبعة ملايين خزرى آخرين يشكلون الجالية اليهودية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد هاجروا إليها من روسيا أيضا وبولندا فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ، وبقية الملايين الأربعة الذين يقطنون هذه الدولة هم من اليهود الشرقيين ، الذين يعاملون فيها معاملة المواطنين من الدرجة الثانية ، فماذا يفعلون بنا لو جاء بقية الستة عشر مليون .. !! ومرة أخرى .. غفر الله لك يا فضيلة الأستاذ !!

* * *

١٦ - سماها اليهود خزريا .. وسماها المسيحيون روسيا .. فما ذنب فلسطين .. يا أستاذنا الحكيم ؟! (*)

أعتقد أن القضية الفلسطينية ، أو بالأصح - المأساة الفلسطينية - هى آخر ميدان يصلح للتطرف ، واستعراض العضلات الفنية ، وخاصة إذا ما تحول مثل هذا الاستعراض إلى عرض فاضح للنقص الشديد فى المعلومات من جانبنا ، ولا أقصد هنا المعلومات العسكرية والتكنولوجية ، التى كان نقصها سببا فى الهزيمة الشاملة للعرب حتى الآن فى مواجهة الغزو الصهيونى ، بل أقصد المعلومات التاريخية والسياسية ، ليس لدى العامة وحدهم ، بل عند أخص الخاصة من الساسة والكتاب والمفكرين ، حتى من يعدون من أعلامهم !

وأجدنى مضطرا إلى سوق مثل تلك التقدمة بين يدى مناقشة ، أجدنى مضطرا إليها بدورها ، للمسرحية القصيرة - أسوة بالقصة القصيرة - التى أنشأها الروائى الكبير الأستاذ توفيق

(*) نشرت بجريدة المساء فى أول نوفمبر ١٩٨٢

الحكيم ، ونشرتها الأهرام فى ٢٨ أكتوبر المنصرم ، بعنوان « توفيق الحكيم وبيجين على مائدة المفاوضات » .

يقول بيجين للحكيم وهو يفاوضه (فى المسرحية طبعا) :
« إن المسيحية كان موقفها مختلفا عن اليهودية والإسلام لأن الدولة الرومانية عندما اعتنقت المسيحية جرتها إلى أوربا ، وهناك تم استيطانها وجعل مركزها روما ، أما اليهودية فلم يتبنها أحد » ، ويوافقه الحكيم (فى الرواية أيضا) على مثل تلك الحجج ويقول له :

« عرفنا الحجج والمبررات لإنشاء وطن لليهود فى هذه المنطقة وهى معقولة إلى حد ما إذا لم يكن الوطن المطلوب إنشاؤه لليهود فى أرض مسكونة بالفعل بقوم آخرين لهم حقوقهم » .

والعبارة الأخيرة عن الأرض المسكونة بآخرين لهم حقوقهم ، هى العبارة الوحيدة الصحيحة فى الكلام كله ، أما ما سبقها فهو باطل تماما ، سواء الحجج التى ساقها بيجين فى تلك المفاوضة الوهمية أو الموافقة عليها فى كلام الحكيم ، واعتبارها معقولة إلى حد ما .. إنشاء وطن لليهود فى هذه المنطقة العربية !

من قال – يا مستر بيجين أو يا أستاذنا الحكيم – إن اليهودية

لم (يتبنها) أحد ويجرها إلى أوربا كما تبنت الدولة الرومانية المسيحية وجرتها إليها ، أى إلى أوربا أيضا ؟!

ما رأيك – أو رأيكما – إذا كانت اليهودية قد تبنتها – وبعد أن تبنت الدولة الرومانية المسيحية – أكبر دولة أوربية ، بل إحدى الدولتين العظميين فى العالم المعاصر وهى الدولة المعروفة حاليا باسم الاتحاد السوفييتى ، التى مازال اسم روسيا قائما على أكبر جمهورياته ويطلق أحيانا على عموم الدولة السوفييتية استسهالا !

ما رأى أستاذنا فى أن هذه الدولة ، أو الشطر الأكبر منها ، بل ومن امتدادها السياسى حاليا فى شرق أوربا ، تحت اسم الكتلة الاشتراكية – كانت تعرف فى التاريخ الموافق للعصر العباسى فى بلادنا ، باسم خزريا ، أيام كانت اليهودية هى الديانة الرسمية لتلك الدولة ، يعتنقها ملوكها والقسم الأكبر من الجنس المسيطر عليها آنذاك وهو جنس الخزر !

إننى أدهش أشد الاندهاش ، حينما أتوهم أستاذنا الحكيم وهو يقول هذا القول وكأنه لم يصادفه فى اطلاعه الواسع ، كتاب واحد يروى تاريخ اليهود أو الصهيونية أو الدولة الروسية ، أو حروب الخزر ضد العرب فى العصرين الأموى والعباسى ، أو كتب الرحالة

العرب الذين ذهبوا قديما إلى تلك الأصقاع ، أو مادة خزر فى معجم البلدان لياقوت الرومى ، أو فى دائرة المعارف البريطانية أو اليهودية ، أو مادة روسيا فى أولاهما على الأقل .. أو حتى مقالة فى صحيفة أو مجلة تروى بتوسع أو باختصار قصة اعتناق شعب الخزر للديانة اليهودية ؟!

بعد ظهور المسيحية ثم الإسلام وبعد عشرين قرنا من زوال ملك إسرائيل القديم فى فلسطين ، وتفرق اليهود من بنى إسرائيل فى المنطقة العربية وحوض البحر الأبيض المتوسط ، كان يعيش فى القوقاز شعب وثنى يسمى الخزر شبيه بالترك أبناء عمومته ، بل كان اسم الخزر غالبا أيامها على اسم الترك ، وبدأ فريق من أبنائه يتحولون إلى الإسلام أو المسيحية فخاف أحد ملوكهم ، وهو الخاقان بولان من ضياع ملكه بين جارتيه القويتين ، الدولة العباسية الإسلامية ، ودولة بيزنطة المسيحية ، وقرر أن يعطى شعبه ديانة سماوية محترمة ، ومستقلة عن هاتين الدولتين ، فى ذات الوقت ، فأعلن اعتناقه اليهودية وجاء بعده خاقان أخر اسمه عبديه فقرر أن لا يتولى ملك الخزر إلا من يعتنق تلك الديانة ، فاعتنقها البلاط كله ، ثم تابعهم معظم شعب الخزر فيما بعد . هل هناك تَبَنٍّ أكثر من هذا ؟!

كان ذلك هو حال الدولة الكبرى التى عرفت فيما بعد باسم روسيا وقد بدأ هذا التحول فى ديانة الدولة واسمها ، فى منطقة كييف عاصمة أواكرنيا حاليا ، وكانت مجرد « خاقانية » أو ولاية تابعة لدولة الخزر ، تسكنها قبيلة صغيرة تعرف باسم الرس من الجنس السلافى ، أو الصقلبى ، استعان بها أمراء من فرغانة فى الانتقاض على ملك الخزر ، واعتنقوا المسيحية وتحالفوا مع بيزنطة فى إسقاطه ، وبعد أن تمكن هؤلاء من التغلب على التتار الذين اجتاحوا المنطقة ، تسمى الأمراء الروس بالقياصرة ، وأعطوا للبلاد اسم روسيا ، التى أعلنوها وريثة لبيزنطة بعد سقوط هذه الأخيرة فى أيدى العثمانيين ، ودولة مقدسة تحمى الأرثوذكسية ، حتى سقطت على يد البلاشفة منذ خمسة وستين عاما .

ما ذنب فلسطين إذن فى هذه التقلبات الدينية والسياسية التى مرت بها تلك الدولة بما فيها تسميتها ! كانت تعرف فى عهد اليهود باسم خزريا ، وفى عهد القياصرة المسيحيين باسم روسيا وأعطاها البلاشفة اسم الاتحاد السوفييتى ، ولا يستبعد أن تكون قد عرفت فى عهد التتر الذين اعتنقوا الإسلام باسم تتاريا ، وهذا الاسم مايزال يطلق حاليا على جمهورية صغيرة فيها تتمتع بالحكم الذاتى ،

وتقوم على ضفاف الفولجا حول مدينة قازان عاصمة التتر ، ومنها جاء لينين زعيم الثورة البلشفية .

ما ذنب فلسطين إذا كان القياصرة الروس قد اضطهدوا جميع المخالفين لهم فى ظل سياسة الترويس التى فرضوها على كل سكان البلاد ،وراح ضحيتها خزر يهود ، وتتر مسلمون ، بل وحتى أوكرانيون وبولنديون مسيحيون يعتنقون مذاهب أخرى غير الأرثوذكسية ، ولا يتكلمون الروسية ؟!

ما ذنب فلسطين ، لكى ينفرد اليهود من بين سائر تلك الأجناس التى كانت مضطهدة فى العهد القيصرى لبلادهم لكى يطالبوا بها وطنا لهم بديلا عن بولندا التى كانت جزءا من ملك الخزر ثم الروسيا ، وعن روسيا ذاتها وقد رويت ما كان من تاريخها باختصار وجل رجال الحركة الصهيونية بمن فيهم المفاوض بيجين جاءوا من تلك الأصقاع ، والمهاجرون الجدد الذين ياتون بهم لاستيطان الأرض العربية فى فلسطين مازالوا يأتون بهم من جنوب روسيا !

وليس ذلك هو تاريخهم فى تلك الدولة العظمى وحدها بل

إن الجالية اليهودية الكبرى فى العالم فى الدولة الثانية العظمى وهى الولايات المتحدة الأمريكية ، قد تكونت من نفس الجنس ، بخروج اليهود الخزر إليها من روسيا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هربا من الاضطهاد القيصرى .

ألا يرى أستاذنا الحكيم ، أن هذا التاريخ ونفوذ اليهود فى هاتين الدولتين العظميين كان وراء منح هؤلاء الخزر الصهاينة قطعة من أرضى بلادنا ليقيموا دولة عليها ، فهل نعينهم على ذلك بإغفال هذا التاريخ ، والموافقة على حججهم فى مفاوضات حقيقية أو متوهمة ؟!

* * *

١٧ – عندما تتقمص سلالة من الرقيق .. شخصية الشعب المختار ! (*)

إذا كنت قد ناقشت يوم الأثنين الماضى – على صفحات المساء – المسرحية القصيرة التى كتبها الأستاذ توفيق الحكيم للأهرام ، بعنوان « توفيق الحكيم وبيجين على مائدة المفاوضات » .. فالتمثيل المسرحى هو أصل من أصول الصهيونية ، قديم قدمها ، وليس ما كتبه الحكيم إلا إضافة صغيرة جدا لتاريخها المسرحى الحافل !

لقد أعدت فى تعليقى على مسرحية الأستاذ الحكيم ، ذكر القصة التى كتبتها أكثر من مرة على صفحات المساء ، فى مناقشتى للأستاذين عبد الرحمن الشرقاوى ، وعمر التلمسانى ، عن اعتناق شعب الخزر للديانة اليهودية . ولم تكن تلك القصة إلا الفصل الأول من تلك المسرحية الدامية المتصلة على « خشبة » الواقع والتاريخ ، فى بلاد الخزر أنفسهم – روسيا حاليا وشرق أوربا ، وفى فلسطين ، وأجزاء أخرى من عالمنا العربى والعالم كله .

(*) نشرت بجريدة المساء فى ٦ نوفمبر ١٩٨٢

شيء ما فى العقيدة اليهودية ، وآخر فى شعب الخزر الذى اعتنقها ، أعطى للمسرحية خطها الدرامى العنيف ، الذى تمخض عن سفك كثير من الدماء ، ليس أولها دم الفلسطينيين الأبرياء فى صابرا وشاتيلا ، ويخشى كثيرا ألا يكون آخرها .

ليس من الغريب ، ولا من المستبعد أن يعتنق أى شعب أية ديانة تروق له ، ولكن الذى حدث بالنسبة للديانة اليهودية وشعب الخزر الذى اعتنقها هو من أغرب الأحداث فى تاريخ الشعوب والديانات معا . فالديانة اليهودية طبقا للكتاب الذى يحمل تعاليمها وهو التوراة ، هى ديانة بنى إسرائيل ، تلك القبيلة التى انتقلت أصولها من العراق إلى الشام ثم إلى مصر فى عهد يوسف عليه السلام ، كما تروى الكتب المقدسة ، وتكاثرت فى مصر ، واستعبدها الفراعنة ، حتى أرسل موسى عليه السلام ، وأمره ربه بالخروج بقومه بنى إسرائيل من مصر إلى الأرض الموعودة فى فلسطين .. وصحة هذه القصة يؤمن بها كل من يؤمن بأى من الديانات السماوية ، سواء فى ذلك اليهودية أو المسيحية أو الإسلام .

وكان كافيا جدا ، بالنسبة لشعب آخر ، من غير بنى إسرائيل ، يعتنق الديانة اليهودية أن يؤمن بصحة هذه القصة ، ويعبد

إلالة الذى اختار بنى إسرائيل لتلك الرسالة وأنزل على أنبيائه ما أنزل من تعاليم . وذلك ما جعل الشاعر اليهودى يهوذا هاليفى الذى كان يعيش فى الأندلس ، حينما بلغه اعتناق ملك الخزر للديانة اليهودية ، يؤلف كتابا بالعربية عنوانه « الخزرى » ، يقول فيه إنه يمكن معرفة الرب من خلال معرفة تاريخ بنى إسرائيل ، الذى ترويه التوراة ويستغرق أكثر فصولها .

ولكن بالرغم من اعتناق الخزر لليهودية ، فقد ظلوا على كثير من عاداتهم الوثنية ، والمصادر العربية واليهودية تجمع على أن ممارسة هؤلاء الخزر للديانة اليهودية كانت تختلف كل الاختلاف عن ممارسة اليهود الأصليين من بنى إسرائيل لها . الشئ الوحيد الذى « اختاروه » .. من الديانة اليهودية ليربطوا أنفسهم به ، هو النسب الإسرائيلى ، حيث اخترعوا قصة مؤداها أن داوود عليه السلام قد زنا بجارية من بلادهم هى التى أنجبت شعبهم كله ! وكانوا يروجون تلك القصة فى البلاط البيزنطى الذى كانو يتوددون إليه ليناصرهم فى حروبهم ضد العرب المسلمين فى العهدين الأموى والعباسى .

ولم يقنعوا بالنسب الذى أعطاه لهم اليهود من التوراة ، حيث نسبوهم إلى أشكناز بن جومر بن يافث بن نوح عليه السلام ،

ومازالوا يعرفون حتى الآن باسم اليهود الأشكنازيم ، تمييزا لهم عن اليهود الأصليين من بنى إسرائيل ، من نسل يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، الذين ينتسبون بدورهم إلى بنى عابر ، من سلالة سام بن نوح .

والذى دعا يهود الخزر إلى التمسك بهذا النسب المزعوم الذى اخترعوه إلى إسرائيل هو ولعهم بفكرة الشعب المختار من ناحية ، وطمسا لتاريخهم هم كشعب بلغ الغاية فى الانحطاط ، أيام وثنيتهم من ناحية أخرى ، حيث كانوا يبيعون فتياتهم وغلمانهم فى سوق الرقيق لتجار من العرب والبيزنطيين ، ولعلهم كانوا يرون فى ذلك نوعا من الرهبانية فى محراب « الرب » الذى كانوا يعبدون ، حيث كانت ديانتهم الوثنية هى عبادة عضو التذكير !

ولكن ادعاءهم النسبة إلى بنى إسرائيل ، « عكس » آثاره عليهم ، حينما اعتنق رعاياهم السابقون من الصقالبة الروس المسيحية وانتصروا عليهم ، وصارت الغلبة للقياصرة الروس . فإذا كان الخزر قد ادعوا أنهم من بنى إسرائيل المشروحة سيرتهم فى العهد القديم من الكتاب المقدس ، فالذين اعتنقوا المسيحية قد طالبوا باستمرار تلك السيرة فى العهد الجديد للكتاب ذاته الذى يؤمن به المسيحيون .

وعلى ذلك كان العامة منهم يستجيبون لتحريض القياصرة الذين كانوا يأمرونهم بين الحين والأخر بحرق وإبادة « أعداء الرب » ، الذين تآمروا على صلب المسيح ! وكان ذلك هو أول وأبشع الفصول الدامية فى المسرحية التى اختار الخزر أن يمثلوها بتقمص شخصية الشعب المختار من بنى إسرائيل !

والفصل الثانى من مسرحيتهم الدامية هو تصويرهم لوضعهم فى المجتمعات الأوربية التى تغلب عليها المسيحية بأنه جزء من شتات بنى إسرائيل فى أصقاع الأرض ، فزادوا بذلك غربتهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، حيث صوروا أنفسهم غير مخالفين لباقى سكانها فى العقيدة فقط ، بل فى الأصول العرقية أيضا . وقد استغل هتلر ادعاءهم هذا فى حملته الهمجية لتنقية العنصر الآرى من الدخلاء ، ويعنى بهم اليهود من العنصر السامى كما يزعمون وأوقع بهم المذابح قبل الحرب العالمية الثانية فى ألمانيا وبولندا وروسيا وغيرها من بلدان شرق أوربا بناء على ذلك الوهم المتبادل عن معاداة السامية . وقد أفلحت قلة من اليهود الأشكنازيم فى الإفلات من تلك المذابح ، بإظهار أصولهم الحقيقية وإثبات نسبتهم إلى الجنس القوقازى ، الذى ينتسب إليه الآريون أنفسهم ! وأن مقامهم حيث هم هو فى بلادهم لم يبرحوها ولم ينزحوا من غيرها إليها .

أما الفصل الثالث فهو المستمر حتى الآن ومسرحه هو الأرض العربية المنكوبة بهم ، حيث أسسوا فى روسيا حركتهم الصهيونية الرامية إلى جمع بنى إسرائيل من الشتات على أرض إسرائيل – طبقا لدعواهم – فى فلسطين .

وقد سخرتهم الأغراض الاستعمارية لتحقيق أهدافها فى المنطقة ، فكان وعد بلفور البريطانى لهم فى عام ١٩١٧ ، فى الوقت الذى كان فيه يهود بريطانيا يسخرون من دعوة هرتزل ، لعلمهم – وهم أقرب إلى اليهود الأصليين الذين جاءوا من الأندلس – أن هذه الحركة يقوم بها أدعياء لإسرائيل ، وليسوا أبناء له كما يزعمون ، وهم يهود الخزر فى روسيا وشرق أوربا بما فيها التمسا موطن هرتزل !

وقد أفلح يهود الخزر فى إقامة كيانهم الصهيونى فى فلسطين باسم دولة إسرائيل ، وجمعوا لها أشتاتا منهم ، ومن اليهود الشرقيين ، الذين قد تصح نسبة بعضهم إلى بنى إسرائيل أو لا تصح ، حيث اعتنقت الديانة اليهودية جماعات أخرى شرقية غير إسرائيلية ، غير أنهم فى ظل المساندة الضخمة من جانب الولايات المتحدة الأمريكية ، قد أثبتوا أن جنسهم الخزرى هو العدو اللدود

للجنس السامى الذى يزعمون النسبة إليه . فالذين يوقعون بهم النكال من العرب فى فلسطين وغير فلسطين هم السلالة الحقيقية للجنس السامى ، ولا يستبعد أن يكون من بين الفلسطينيين الذين ينكلون بهم سليل حقيقى لاسرائيل النبى ، اعتنق آباؤه إحدى الديانتين المسيحية أو الإسلام . ولكن تلك الجرائم كلها التى تتم باسم الأديان السماوية وهى بريئة منها ، هى دليل على مدى الانحطاط الذى وصل إليه الجنس البشرى فى ظل « تقدمه » التكولوجى ، حينما يجعل للأوهام والأساطير ، بل والأكاذيب أيضا كل تلك السطوة على البشر ومصائرهم .

إن الحكومة الصهيونية ما تزال تصر على برنامجها فى استيطان الأرض العربية المحتلة فى فلسطين خروجا على الإجماع العالمى وحتى رغبة حليفتها الكبرى أمريكا ، تصر على أن تاتى بمزيد من الخزر من على ضفاف الفولجا ، الذى هو نهرهم الأصلى من أيام كان يسمى نهر إتل فى العهد الخزرى ليستوطنوا مستعمرات على ضفاف الأردن ، بعد أن اغتصبوا القدس ، التى لم تكن عاصمة لهم ولا لأجدادهم فى الملك الذى فقدوه فى بلادهم وكانت حاضرته هى مدينة إتل أيضا

على بحر الخزر أو بحر قزوين ، والتى تسمى الآن بالروسية مدينة أستراخان !

. متى يوقف العالم ، أو نتصدى نحن العرب بالكفاءة اللائقة ، لوقف استمرار تلك المسرحية البشعة على أرض بلادنا ؟!

* * *

١٨ - الثورة العالمية الجديدة .. ضد من ؟! (*)

فى صيف عام ١٩٨١ ، كنت أزور أحد الأصدقاء فى لندن ، ضمن جولة « سياحية » لى هناك .. وطرق الباب ساعى البريد يحمل إليه رسالة . كان الساعى صبيا حدثا لا يتجاوز عمره الرابعة عشرة .. وسأله الصديق : هل ترك دراسته فأجاب بالنفى ، وقال إنه يعمل فقط فى شهور الصيف ليساعد نفسه ، وعاد صديقى يسأله : هل ينوى أن يتم دراسته ؟ فأجاب بالنفى أيضا ، وقال إنه يعتزم بعد أن يشتد عوده أن يتزعم عصابة للسلب والنهب !

كان ذلك فى ذات الصيف الذى شهدت فيه بريطانيا اضطرابات واسعة النطاق ، بين البيض من سكان البلاد الأصليين ، والملونين الذين جاء معظمهم من المستعمرات السابقة فى بريطانيا ، مثل أفريقيا وشبه القارة الهندية ، ليعمل معظمهم فى الأعمال التى يأنف البيض من أن يمارسوها ، ويثور البيض

(*) نشرت بمجلة الهلال فى أبريل ١٩٨٣

المتعطلون ويتهمون الملونين بأنهم السبب فى أزمتهم الاقتصادية وتعطلهم ، وتنشب المعارك بين الفريقين ، وتأتى قوات الشرطة لفض الاشتباكات بينهما ، فيستدير الفريقان إليها ، وينزلان الهزيمة بقوات « الغزو الحكومى » ، وبالمرة يهاجم الفريقان المحلات التجارية وينهبان منها ما تصل إليه أيديهم ! وتدور المناقشات فى البرلمان البريطانى « العريق » وفى الصحف البريطانى « الوقورة » ، حول ما إذا كان تسليح رجال الشرطة بالهراوات المطاطية كافيا لمواجهة مثيرى الشغب المسلحين بأسياخ الحديد والحجارة وما أشبه ؟! وهل آن الآوان للسماح لرجال الشرطة المكلفين بمواجهة الشغب بحمل واستعمال الأسلحة النارية على الطريقة الأمريكية ، من أجل تقليل الخسائر الفادحة فيما بينهم والتى تفوق كثيرا خسائر المشاغبين ؟ أم أن ذلك يعتبر تراجعا فى الديمقراطية البريطانية العتيدة ؟! .

وتقول السيدة التى جاءت لتنظف المنزل الذى يملكه صديقى هذا ، وهو من بلد عربى .. إن أولادها الصغار يقولون لها : « ماما ، اذهبى إلى أى مكان فى العالم وأرسلى إلينا نقودا !! » .. وهذه السيدة تعمل مدرسة للرسم ومتزوجة من مهندس ليس متعطلا ، بل مازال يعمل ويكسب كما تكسب هى من عملها ..

ومع ذلك فإن الحاجة إلى النقود أصبحت أكثر من الحاجة إلى الأم فى أسرة بريطانية متعلمة عاملة وأقل تعرضا للبطالة ، فما بالك بالآخرين ؟! .

كان ذلك فى ذات الصيف ، الذى سأل فيه التليفزيون البريطانى سيدة أمريكية ، جاءت « للفرجة » على الزفاف الملكى بين ولى العهد الأمير تشارلز والليدى ديانا ، عما إذا كانت الحياة فى بريطانيا تروق لها فأجابت بالايجاب ، فعاد يسألها : هل تحب أن تقيم فى بريطانيا للاستمتاع بتلك الحياة ؟ فأجابت بأن مواردها لا تكفى لذلك ! فالغلاء فى بريطانيا فاحش جدا بالقياس إلى ما هو عليه فى أمريكا !

وكان ذلك أيضا فى ذات الصيف ، الذى قررت فيه « المسز تاتشر » رئيسة الوزراء ، وزعيمة حزب المحافظين أن تغلق كثيرا من المدارس بسبب نقص الميزانية المخصصة للتعليم ، وأن تمنع صرف اللبن بالمجان للتلاميذ الصغار فى المدارس التى لم تقرر إغلاقها بعد ! وبدلا من ذلك وتلهية عن ذلك ، قررت إقامة الزفاف الباذخ لولى العهد البريطانى ، ليكون رمزا لأمجاد الإمبراطورية الغاربة ، وليكون بالمرة موردا سياحيا يدعم الخزينة البريطانية الخاوية ، ويجعل الشعب

البريطانى يعيش فى مهرجان أسطورى لمدة أيام لعله ينسى بطالته وفقره .

وقد حاولت أن أتوجه إلى مكان الاحتفال فانتظرت طويلا عسى أن أظفر بسيارة تاكسى خالية تنقلنى إلى هناك ، فلم أجد . وفى النهاية أقنعنى شاب بريطانى ، بأن أعود إلى فندق وأكتفى بالفرجة على الزفاف على شاشة التليفزيون ، حيث قال لى : أيها الرجل هذا من أجلنا نحن فقط !!

وتكلف تنظيف شوارع لندن من آثار الزفاف التاريخى ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات الاسترلينية ، وحيث أن المسز تاتشر لا يتيسر لها فى كل صيف أن تزوج أميرا من إحدى فتيات الإرستقراطية ، فقد كان استعراضها الإمبراطورى فى الصيف التالى ، هو غزو جزر فوكلاند ، التى ضمنت لها حماسة شعبية للمجد الغارب لا تقل عن حماسة الزفاف الملكى إن لم تزد ، وإن كانت قد التهمت كل ما أكسبه الزفاف الملكى من موارد سياحية للخزينة البريطانية وفوقه أضعافا مضاعفة !

ولم يكن جميع البريطانيين بطبيعة الحال سعداء أو راضين عن الزفاف الملكى أو الامبراطورى السعيد ! فقد راحت مجلات

« بيع السخط » تبيع « بلوزات » مما يرتديه الأولاد ، عليها رسوم تسخر من هذا الزواج ، وعبارات من نوع أن تكاليفه كانت تكفى للتخفيف من ويلات البطالة ، بعض تلك المحلات كانت تعرض صورا مقلوبة للعروسين ، وتضع فى إحداها وجه تشارلز محل وجه ديانا بين شعرها وجسدها ، وبالعكس ، بحيث يبدو العروسان الوسيمان غاية فى القبح والدمامة ! ولكن ما باعته أو عرضته تلك المحلات ، لم يكن ليقاس البتة ، بما كانت تعرضه محلات « بيع الرضا » ، من صور وألبومات وتحف وهدايا ، وكل ما يخطر على البال أو لا يخطر ، من وسائل إظهار البهجة وتخليد ذكرى تلك المناسبة « المجيدة » من وجهة نظر الباكين على مجد الإمبراطورية .

القضاء على نجم سياسى

بعد الزفاف الملكى ، وفى الصيف ذاته ، كان الشارع السياسى البريطانى كله مشغولا بقضية واحدة ، هى القضاء على النجم السياسى الصاعد فى ذلك الحين ، « تونى بن » . فقد كان يتزعم الجناح اليسارى لحزب العمال البريطانى ، وكانت بينه وبين دينيس هيلى زعيم الجناح المعتدل منافسة شديدة أيهما يختار نائبا

لرئيس الحزب العجوز مايكل فوت ، بحيث يحل محله كزعيم لحزب العمال حينما يغادر هذا الأخير المسرح السياسى .

إن « بن » هو سليل لأحد اللوردات ، ولكنه كان يطالب بإلغاء مجلس اللوردات ، وكان موقفه صريحا فى السياسة الخارجية ، فهو يرفض تماما إقامة قواعد ذرية أمريكية على أرض بريطانيا ، ويرى التوسع فى الإجراءات الاشتراكية من أجل حل مشكلة للبطالة بما فى ذلك توجيه الأموال التى تنفق لأغراض التسلح من أجل تحسين الوضع الاقتصادى للبلاد .

لم تقصر الصحف التابعة لحزب العمال أو المحافظين فى الهجوم على بن وسياسته ، حتى التليفزيون الحكومى « المحايد » اشترك فى الحملة عليه فى الأيام الأخيرة قبل انعقاد مؤتمر الحزب .. وقد استغلت جميع تلك الأجهزة حادثة تافهة تجمهر فيها أنصار « بن » ضد دينيس هيلى وصاحوا فى وجهه وهو يخطب ، فامتنع عن الكلام ، وأقام الدنيا ولم يقعدها حول الديمقراطية المهددة بالخطر بسبب بن وأنصاره . وراحت بعض الصحف تتهم بن بأنه يعمد إلى مزيج من أساليب النازية والشيوعية للقضاء على الديمقراطية ، فهو من ناحية يستغل شخصيته الجذابة الساحرة فى السيطرة على

الجماهير ، وفى الوقت ذاته يحيط نفسه بمجموعة من محترفى العمل السياسى والتهييج الجماهيرى على طريقة الأحزاب الشيوعية ، تمهيدا لفرض ديكتاتورية بن وجماعته على حزب العمال البريطانى ، ثم على المجتمع البريطانى كله لو فازوا فى الانتخابات ، حتى ينشئوا فى بريطانيا ذات الديمقراطية العريقة ، نظاما من النوع الذى يسود أوربا الشرقية ، نظام ديكتاتورية البروليتاريا !

وتآزرت قوى أخرى للنيل من بن وإسقاطه .. من ذلك تشكيل حزب جديد باسم الحزب الديمقراطى الاشتراكى من بعض أعضاء حزب العمال ذوى النزعة اليسارية فى السابق الانتهازية فى الحاضر . ولقد كان حزب العمال البريطانى يأنف فى الماضى من أن يتخذ لنفسه ذلك الاسم الشائع للأحزاب الاشتراكية والعمالية من أيام « الدولية الأولى » فى عهد كارل ماركس و « الدولية الثانية » من بعده ، على غرار ما كان يحدث فى القارة الأوربية بأسرها . كان زعماؤه يرون الاكتفاء باسم حزب العمال تعبيرا عن انتمائهم المباشر للنقابات العمالية بدلا من التيارات السياسية ، ويرفضون تسمية حزبهم باسم « الحزب الديمقراطى الاشتراكى » الذى ابتذلته أحزاب أوربا . ولكن بعد بزوغ نجم بن واتجاهه اليسارى الواضح ، والتفاف

أعداد متزايدة من جماهير الحزب حوله ، تنازلت تلك الطائفة العمالية عن التقليد القديم فى اسم الحزب وقررت اتخاذ اسم الحزب الديمقراطى الاشتراكى لتسرق منه الأضواء ، ثم عمدت إلى التحالف مع بقايا حزب الأحرار بزعامة ديفيد أوين ، والأحرار فى بريطانيا قد يكونون أشد محافظة من حزب المحافظين ، وتقدم الفريقان إلى الشعب البريطانى بهذا التحالف الشاذ ، باعتباره بديلا ممكنا لحكومة المحافظين التى كانت تعانى تدهورا خطيرا فى شعبيتها ، حيث أن حزب العمال ، بتمزقه الحاضر ، يعجز عن أن يكون هو البديل الصالح !

ولم يتردد مايكل فوت ذاته ، زعيم حزب العمال ، فى القيام بعملية تهريجية من أجل الغرض السياسى ذاته ، وهو إسقاط بن ! ذلك أنه كان مدعوا لحضور احتفال وقور فى إحدى الساحات العامة لتخليد ذكرى ضحايا الحرب العالمية الثانية ، فتوجه إلى الاحتفال وشاهده الناس فى الطريق العام وعلى شاشة التليفزيون يرتدى – خلافا لجميع الحاضرين – جاكت سبور قطيفة خضراء من غير لون البنطلون ، بينما الجميع يرتدون بذلات كاملة وقورة ! وأصبحت قلة دوق « مايكل فوت » هى الشغل الشاغل لتعليقات

الصحف والإذاعة والتليفزيون .. وكانت المناورة واضحة أمام من يراقب الموقف السياسى عن كثب ، فقد نجح « فوت » فى إعطاء « الشعبية » معنى سوقيا مبتذلا منفرا للجماهير البريطانية ، على حساب شخصه ، وحزبيا على حساب « بن » ، زعيم الاتجاه اليسارى داخل حزبه ، الذى خسر المعركة الانتخابية داخل مؤتمر الحزب ، حول منصب نائب رئيس الحزب بفارق ١٪ فقط من الأصوات ، خبا بعدها نجم بن ، ولم يعد هناك أمل ، أو خوف ، من قرب تطبيق برنامجه المتطرف !

فتاة بريطانية تدرس فى الجامعة قالت لى إنها لا تؤمن بالاشتراكية ، ولكنها مع ذلك تؤيد تأميم البنوك البريطانية ، التى تهرب منها رءوس الأموال حاليا للعمل فى جنوب إفريقيا العنصرية ، حيث الأرباح أوفر ، والضرائب أقل واحتمالات التاميم لا وجود لها . دون أن تبالى بما قد يصيب الاقتصاد البريطانى من خراب بسبب هربها .

التسليح والفودكاكولا !

فى نفس العام كانت القارة الأوربية ، وخاصة ألمانيا الغربية ، تجتاحها مظاهرات صاخبة ضد نشر الصواريخ الأمريكية الذرية فى

أراضيها ، وكان انتصارات الاشتراكية الديمقراطية تتوالى فى عدد من البلدان الأوربية ، فى اليونان ، وفى فرنسا ، التى قام فيها ائتلاف جديد بين الحزب الاشتراكى بزعامة ميتران رئيس الجمهورية الحالى ، والحزب الشيوعى الفرنسى الذى سبق له التخلى عن نظرية « ديكتاتورية البروليتاريا » ، وظفر لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية بأربعة مقاعد فى الحكومة الاشتراكية الجديدة . ولكى يتقى هذا الائتلاف الغضب الأمريكى قدر الطاقة ، فقد أظهرت الحكومة الفرنسية الجديدة تشددا « يمينيا » فى السياسة الخارجية إزاء الاتحاد السوفييتى والتسلح النووى ، كيما تنجح فى تطبيق برنامجها الإشتراكى الداخلى ، الذى يواجه الآن مصاعب شديدة ، لا شك أن لأعباء التسلح نصيبا بارزا فيها .

قبل ذلك بعام واحد كانت بريطانيا تقرأ ، هى والعالم كله ، الطبعة الثانية من كتاب مثير اسمه « الفودكا - كولا » .. لمؤلفه البريطانى تشارلز ليفنسون لا يهاجم فيه نفقات التسلح الباهظة ويعتبرها مسئولة عن متاعب العالم الاقتصادية ، بل على العكس من ذلك يهاجم سياسة « الوفاق » ويعتبرها هى المسئولة عن تلك المتاعب وخاصة البطالة فى غرب أوربا !

ويذهب المؤلف فى كتابه ذى التسمية الطريفة ، إلى أن العالم كله تحكمه سلسلة متآمرة أحد طرفيها هو الشركات المتعددة الجنسيات فى العالم الرأسمالى ، والثانى هو قوى التسلط البيروقراطية فى النظم الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفييتى !

وعن طريق حشد هائل من الأرقام والإحصاءات والبيانات التفصيلية ، راح يصوغ نظرية مؤداها أن اقتصادا مختلطا يقوم الآن ويتزايد معدله بين المعسكرين الكبيرين ، شعاره هو : « عبئوا لنا الكوكاكولا ، وسوف نشترى نحن منكم الفودكا » !

فالشركات المتعددة الجنسيات ، التى تدار معظمها من أمريكا ، هى التى تقود التطور التكنولوجى الحديث فى الإنتاج الصناعى ، والمعسكر الاشتراكى فى حاجة إلى اكتساب إنجازاتها فى هذا المجال ، لذلك يقدم لها العمل الرخيص فى سبيل ما يحصل عليه من تراخيص تكنولوجية . ويعتبر أوضح الأمثلة لهذا التعاون التآمرى ، شركة فيات الايطالية الأصل ، العالمية الانتشار ، فقد أقامت خطوطا لإنتاج سياراتها فى كل من الاتحاد السوفييتى وبولندا ، ونظرا لأن الحكومة فى كل من الدولتين الاشتراكيتين هى التى تتولى تقدير أجور العمال فى التبادل الخارجى ، فقد احتسبت لعمالها

أجوراً أقل بكثير من أجور عمال إيطاليا ، وكانت النتيجة أن أصبحت السيارات من نوع فيات المنتجة على خطوط التجميع السوفييتية وتحمل اسم « لادا » وكذلك البولندية ، أرخص فى تكلفتها من تلك التى تصنع فى إيطاليا ، فيزداد حجم مبيعات الشركة الأصلية وترتفع مكاسبها فى الوقت الذى يعانى فيه العمال الإيطاليون من البطالة . ويضيف المؤلف أن الحزب الشيوعى الإيطالى لم يحرك ساكنا إزاء هذا التواطؤ على البروليتاريا الإيطالية ، ليس بسبب ولائه للاتحاد السوفييتى ، ولكن لأن الحزب ذاته ، هو والفاتيكان ، كل منهما يستثمر أمواله فى أسهم شركة فيات العملاقة !

ويصف المؤلف الصراع السياسى الدائر بين المعسكرين ، بأنه مجرد واجهة غير حقيقية لما يجرى وراء الكواليس ، فمهما تباكى دعاة الغرب على فقدان الديمقراطية فى المعسكر الاشتراكى ، وتصايحوا حول حقوق الانسان ، فإن مصلحتهم الحقيقية أصبحت تكمن فى ستمرار الأوضاع التى لا تتيح للعمال حق الإضراب من أجل زيادة أجورهم ، ولا تكوين نقابات مستقلة من أجل الغرض ذاته . وبالمثل فمهما تكن الإدانة المذهبية من جانب المعسكر الاشتراكى للاستغلال الرأسمالى ، فإن الاتحاد السوفييتى يسمح

باسم التعاون الاقتصادى للشركات المتعددة الجنسيات ذات الطبيعة الإمبريالية بالعمل داخله ، بأوضاع تتيح لها امتصاص فائض القيمة من العمال السوفييت ، من خلال عقود تكفل لهم حق إنشاء المشروع داخل الاتحاد السوفييتى وإدارته وتسويق منتجاته على نحو لا يكاد يختلف عن عقود الشركات الأمريكية للتنقيب عن النفط فى بلاد الشرق الأوسط ! ومعنى ذلك من وجهة نظر المؤلف أن الاتحاد السوفييتى يسمح للإمبريالية أن تستعمر الاقتصاد السوفييتى جزئيا بحكم التكنولوجيا المتطورة لديها فى كثير من النواحى التعدينية والإنتاجية !

ولقد كان التعاون الاقتصادى بين الدولتين العظميين أمريكا وروسيا قديما قدم الثورة البلشفية ذاتها ، حيث كان واحدا من شعارات لينين : أن مستقبل الاشتراكية السوفييتية يكمن فى « الجمع بين ثورية العامل الروسى والكفاءة الأمريكية » .. وفى هذا الصدد يقول بريجنسكى مستشار الرئيس الأمريكى السابق لشئون الأمن القومى : « إن سيطرة العوامل الاقتصادية والتكنولوجية تفوق فى أهميتها – وهى أشد تأثيرا فى التاريخ – من الثورة الفرنسية واستيلاء البلاشفة على الحكم » ويضيف : « لقد كان التطور الاقتصادى

السوفييتى منذ عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٣٠ معتمدا أساسا على المساعدة التكنولوجية من جانب الولايات المتحدة الأمريكية ، و ٩٥٪ على الأقل من البناء الصناعى السوفييتى كان يتلقى تلك المساعدة » .

وفى ١٢ إبريل من عام ١٩٧٦ وقع أرمان هامر رئيس شركة بترول الغرب فى الولايات المتحدة الأمريكية ، عقدا مع ليونيد بريجنيف الرئيس السوفييتى الراحل ، قيمته ٢٠ مليار دولار لإنشاء مصانع للأسمدة ، ومن المعروف أن هامر هذا هو ابن مهاجر يهودى إلى أمريكا من أصل روسى ، وكان والده صديقا مقربا إلى لينين زعيم الثورة البلشفية ، حيث بادر فى عام ١٩٢١ إلى إنقاذ روسيا من المجاعة التى مات فيها أكثر من ثلاثة ملايين من سكان مناطق الأورال ، عن طريق تصدير مليون طن من القمح الأمريكى إليها . وفى عام ١٩٢٢ كان يفاوض لينين حول استمرار خطوط إنتاج مصانع فورد فى الاتحاد السوفييتى !

وينتهى مؤلف « الفودكا – كولا » إلى السخرية من المتفائلين ، الذين توهموا أن اطراد سياسة الوفاق الدولى ، سوف يؤدى إلى تحقيق مزيد من الحريات الديمقراطية فى الشرق الاشتراكى ، ومزيد من

الإجراءات الاشتراكية والتوسع فى الملكية العامة لوسائل الإنتاج فى الغرب ، حيث لم يعد لأى من الطرفين مصلحة فى تغيير نظام الآخر : لا الشركات المتعددة الجنسيات ترغب فى إزالة « ديكتاتورية البروليتاريا » ولا « البيروقراطيون » فى المعسكر الاشتراكى يرغبون فى تأميم الشركات المتعددة الجنسيات التى يتعاملون معها ! وعلى العكس من ذلك ، يتوقع أن يؤدى تقارب المعسكرين إلى تدهور الديمقراطية فى المعسكر الغربى !

فإذا كان ما ذهب إليه المؤلف صحيحا فهل تفضل الجماهير فى كلا المعسكرين أن يبقى الصراع بينهما ، بما يجره وراءه من إنفاق باهظ على التسلح ، هو فى حقيقة الأمر ، مصدر المعاناة لدى الجماهير على كلا الجانبين ؟

ولم يقل لنا مؤلف الفودكا — كولا الساخط على كل مؤسسات العالم على أى شئ يثور العالم : على وفاق قواه العظمى ، أم على صراعهما ؟! على تبادل الفودكا والكوكاكولا ، أم الصواريخ النووية المتوسطة والبعيدة المدى ؟!

إن الجواب عندى — كما لا أشك أن القارئ قد استنتجه — هو ضد مغتصبى بلادنا من الخزر الأشكناز وانتشارهم الدولى على هيئة طبقة عالمية مسيطرة !

١٩ – بولندا بين الزوج الشرقى والصديق الغربى (*)

نكتتان سمعتهمافى وارسو

سافرت إلى بولندا فى الأيام التالية مباشرة ، لوفاة الرئيس السوفييتى الراحل ليونيد بريجنيف فى نوفمبر الماضى ، وشاهدت جنازته فى نفس اليوم الذى وصلت فيه إلى صوفيا عاصمة بلغاريا ، حيث كنت مسافرا « ترانزيت » على الخطوط البلغارية « بلكان » وقفت أشاهد الجنازة ، عند إعادة إذاعتها فى تليفزيون صوفيا فى نشرة أخبار الساعة الثامنة ، وسط حشد كبير من البلغار فى قاعة الفندق الذى كنت أنزل فيه احتشدوا جميعا فى صمت لمشاهدة الجنازة جلوسا أو وقوفا ، دونما بادرة تعليق .

وحينما وصلت إلى وارسو فى اليوم التالى ، كانت ربة الدار التى نزلت بها ، متبرمة من كثرة البرامج التى تذاع عن الرئيس السوفييتى الراحل ! وهناك بدلا من الحزن أو حتى الصمت سمعت نكتتين حديثتى التأليف ، بمناسبة رحيل الزعيم السوفييتى :

(*) نشرت بمجلة الهلال فى فبراير ١٩٨٣

الأولى منهما تقول ، إن الجنرال ياروزلسكى ، الحاكم العسكرى لبولندا ، ذهب ليسأل الرفيق بريجنيف ، عما إذا كان الوقت قد حان للافراج عن « ليخ فاونسا » [1] كما ينطقون اسمه هناك — فرد عليه بريجنيف قائلا : « لن تفعل ذلك إلا على جثتى » ! ، وقد توافق بالفعل إطلاق سراح فاونسا مع وفاة « الرئيس السوفييتى السابق » !

النكتة الثانية تقول : إن بريجنيف أراد أن يقدم استعراضا للقوة فى الميدان الاحمر بموسكو ، فسار وحده فى الميدان دون أن يسنده أحد !!

وحينما سألت عن المبنى الضخم ، الذى يقع فى أحد الميادين الرئيسية بوارسو ، ويشبه تماما فندق أواكرنيا فى موسكو ، قال لى سائق التاكسى فى تبرم : إنه السفارة السوفييتية ! ودهشت تماما من تصور أن تحتاج سفارة من السفارات ، حتى ولو كانت السفارة السوفييتية فى أهم جارة « اشتراكية » لها إلى هذا المبنى الضخم الذى تتجاوز طوابقه الثلاثين ! وظننته على الأقل مقر حلف وارسو ، ثم

---

(١) يكتب اسمه عادة فى صحفنا ليش فاليسا ، والتصحيح لسفيرنا فى وارسو اللواء طه المجذوب .

علمت فيما بعد من الأصدقاء الذين صحبونى لزيارته ، أنه مبنى أقامه السوفييت ليكون متحفا للتطور التكنولوجى وأهدوه إلى بولندا ، وأقاموا فيه مطاعم للسياح وجعلوا من سطحه متنزها يمكن عن طريقه مشاهدة العاصمة البولندية البديعة من جميع الجهات ، كما هو الحال بالنسبة لبرج القاهرة عندنا . ومع ذلك لم يكن الأصدقاء الذين أوضحوا لى طبيعة المبنى أقل مرارة من سائق التاكسى الذى حاول التشنيع عليه بوصفه بأنه السفارة السوفييتية ، فحينما سألتهم عن سر استياء بعض البولنديين من هذا المبنى ، قالوا لى أن ذلك يعود إلى أزمة الاسكان الخانقة وأنه كان يمكن استغلال المساحة التى أقيم عليها هذا المتحف ، لبناء المساكن ، ولم تعجبنى حجتهم هذه ، وأشرت إلى العديد من المساحات الخالية التى يمكن أن تقام عليها المساكن فى وارسو ، فلم يعطونى جوابا !

البداية كانت فى لندن

بدأ تفكيرى فى القيام بهذه الرحلة إلى بولندا ، حينما كنت فى لندن فى صيف العام الأسبق ١٩٨١ ، حيث أقمت قرابة أربعة أشهر فى أحد الفنادق المتوسطة ، فى المنطقة الواقعة بين حى شلسى وجلوستر رود . وقد لاحظت أن معظم العاملين فى الفندق هم من

البولنديين شبابا وشابات بعضهن سيدات متزوجات ، تذهب من هؤلاء جميعا أفواج وتأتى أخرى ، ومعظهم متعلمون ، إما طلبة فى الجامعة ، أو موظفون حديثو التخرج ، جاءوا إلى لندن ، « ليغسلوا الأطباق » على طريقة شبابنا حينما يسافرون فى الصيف ، ويرضون بالمبيت ، والأكل المضمون مهما يكن مستواه ، والأجر القليل ، مقابل العمل من أجل قضاء بضعة أسابيع فى لندن ، بعضهم كان يشترى بما يحصل عليه من أجر بعض الملابس ، أما الذى استرعى انتباهى حقا ، فكانت فتاة بولندية ، عملها الأصلى فى بلادها مدرسة ، قالت لى إنها ذاهبة إلى الشاطئ لكى تدرك سفينة تجارية من كندا إلى بولندا ، لكى ترسل عليها إلى ذويها بعض علب « البن » وبعض المواد الغذائية !

توطدت صلتى بمن يحسن التكلم بالانجليزية من هؤلاء ، معظهم كان يتحدث عن سوء الأحوال فى بولندا ، ويتحمس لنقابة التضامن . حتى أن إحدى الفتيات كانت تحمل شعارات النقابة ، وقد أهدتنى واحدة منها . إلا فتاة واحدة كانت شديدة الحماسة ضد التضامن ! وقالت لى إن هؤلاء مجموعة من الكسالى لا يريدون أن يعملوا ، وهم يلجأون إلى الاضراب بمناسبة ودون مناسبة ، وسوف

يؤدى مسلكهم هذا إذا استمر إلى الخراب الحقيقى للاقتصاد البولندى ، وحلول الكارثة سواء بالمجاعة الفعلية أو بالغزو السوفييتى . وكان على أن أذهب إلى بولندا لكى أعرف الحقيقة بنفسى . ولكن الصيف كان قد انقضى ، وكان على أن انتظر إلى الصيف التالى الذى أكل معظمه منا الغزو الإسرائيلى للبنان ، فلم أستطع القيام بالرحلة ، أو مجرد التفكير فيها إلا فى أواخر الخريف المنصرم .

احترس من الصحفيين

رحبت بى السيدة المصرية التى تعمل فى السفارة البولندية بالقاهرة وهى تتسلم طلبات الفيزا للسفر إلى بولندا ، حينما سألتنى عن الغرض من الرحلة فقلت لها : لأغراض السياحة ! ولكن ما أن فحصت جواز سفرى واكتشفت أن الصحافة هى مهنتى ، حتى قالت لى : انتظر خمسة عشر يوما على الأقل قبل أن تتسلم ردا على طلبك الفيزا . ففى بولندا الآن حالة طوارىء ولابد من الرجوع للحكومة البولندية قبل التصريح لأى من الصحفيين أو العسكريين بالسفر إلى هناك ! وكان أن « طال انتظارى » (مع الاعتذار للموسيقار عبد الوهاب) ، حتى وصلتنى الفيزا ، بعد أن نسست

منها ، ليس بعد أسبوعين كما قالت السيدة ، بل بعد أربعين يوما بالتمام والكمال .. وتلكس رائح ، وتلكس عائد .. إلخ .

ومن الوهلة الأولى عند وصولك إلى وارسو تدرك أنك فى عاصمة غربية منتمية إلى المعسكر الشرقى ! الحى القديم الذى يشبه حى الحسين عندنا فى نواح كثيرة ، ويختلف فى أخرى ، يذكرك طابعه المعمارى ببقايا المدينة القديمة فى موسكو ، من حيث هيئة المبانى ، وغلبة اللونين الأبيض والأحمر عليها . أما الأحياء العصرية ، وخاصة وسط المدينة ، فتشبه العواصم الغربية تماما ، بالمبانى الفخمة التى يغلب عليها اللون الرمادى ، والتى كنا نرى نماذج كثيرة لها فى القاهرة الحديثة ، قبل أن يدركها ما أدركها من زحام لا تعرفه وارسو ، ولا ينتظر أن تعرفه ! أما القسم الثالث والأخير ، فهو « الأحياء الاشتراكية » الحديثة جدا على أطراف المدينة ، والتى يمثل مستواها وسطا ما بين « البلوكات » السكنية فى مدينة نصر ، و « المرحومة » تلال زينهم على طريق صلاح سالم .. الطابع « العملى » المتكرر الخالى من الجمال ، لكن النظافة متوافرة تماما ، ولا داعى للمقارنة بما عندنا !

الإغراء السياحى

سألنى سائق التاكسى عما إذا كانت هذه أول مرة أزور فيها بولندا ، فأجبته بالإيجاب ، فراح يحدثنى على الفور عن الفتيات الجميلات وحفلات الاستربتيز ! ويبدو أن لون بشرتى جعله يعتقد أننى جئت من بلاد الشرق الغنية التى يتوافد منها السياح !..

لم يكن المسكين يعلم أننى جئت من واحدة من بلاد الدخل المحدود ، وأننى بالذات أنتمى إلى شريحة من هذا النوع بين طبقاتها الاجتماعية . وكان أن اعتذرت له برفق وحزم فى آن معا ، متعللا له بسنى التى لم تعد تسمح لى بالاهتمام بأمثال تلك الأمور ، وليت الشباب يعود يوما .. وما إلى ذلك !

على أن حديث « قائد » السيارة ، أو بصيغة المبالغة من قائد ! . ذكرنى بحديث آخر سمعته أيضا فى لندن ، حيث كان ينزل معى فى ذات الفندق عدد من السياح الشرقيين أمثالنا .. فقد سمعت شابين هناك أحدهما جاء إلى لندن لينشد العلاج ، والثانى من أجل المتعة ، كان الأخير منهما صاخبا ساخطا على صديقه ، يقول له إنه لم يحصل على مبتغاه كما يشتهى فى إنجلترا ، ولابد لهما من المرور

بوارشو « هكذا كان ينطق اسم العاصمة البولندية » قبل العودة إلى بلده ، لكى تتاح له الفرصة الكافية « للاستئناس » . وللعلم ، فإنجلترا معروفة بأنها بلد الضباب والنساء ، ولا ينقصها ما كان يطلبه صاحبنا ، بل تأتى إليها الفاتنات من جميع أنحاء العالم وخاصة فى الصيف . الفرق كان فى السعر ، فالغانية فى لندن الرأسمالية تكلف عشرين جنيها استرلينيا على الأقل فى الليلة « والعهدة على من قال » .. وفى خارج لندن أرخص من ذلك ، ربما نصف أو ربع هذه القيمة .. أما فى وارسو « الاشتراكية » كما فهمت من حديث صاحبنا فتكلف أرخص من ذلك بكثير ! .. ويصاب المرء بالغثيان وهو يسمع المقارنات بين هذه العاصمة وتلك فى هذا المجال .. ولكنى أنقل إليك الصورة بأمانة كما رأيتها للعلم بما يجرى وراء البحار ..

وفى بعض الفنادق فى العاصمة البولندية عدد من السياح الشرقيين مازالوا مقيمين ، عرفت أن بعضهم من ليبيا ومن بلدان عربية أخرى ذات علاقات قوية بالشرق .

وتتردد على أبهاء الفنادق فتيات من النوع الذى وصفه سائق التاكسى ، يكفيها أن تخلع البالطو الثقيل فى مدخل الفندق لتشد إليها عيون المنتظرين .

وفى أزياء لا تقل أناقة ولا تزيد مساحة ما تحجبه عن الباريسيات ! لم أر مثل ذلك – والحق يقال – فى أى بلد اشتراكى آخر !! فإن بولندا تنفرد بهذه الأمور فى الشرق الاشتراكى ..

على بابا والأربعون دولارا !

القصة التقليدية عندنا عن « على بابا والأربعين حرامى » ، انقلبت عندما وصلت إلى بولندا ، فقد صار اسم على بابا علما على اللص أو النصاب ، بدلا من الرجل الطيب الذى يخوض مغامرة ضد اللصوص .. قبل ذهابى إلى وارسو حذرنى بعض من زاروها من قبل من على بابا النصاب ، ذلك الذى يصطادك أمام الفندق ويعرض عليك تبديل نقودك الحرة ، بأضعاف السعر الرسمى ، الذى تبدل به مع الحكومة والبنوك الرسمية ، ففى المطار يلزمونك بأن تحول ما قيمته ١٥ دولارا لكل يوم سوف تقضيه فى بولندا ، طبقا للمدة التى تضمنها طلبك للفيزا . وسعر التبادل الرسمى هو حوالى ٨٥ زولوتا للدولار ، أما فى السوق الحرة فيبلغ أكثر من أربعمائة زولوت ! ويعرض عليك على بابا أكثر من ذلك ، ٥٠ ألف زولوت للورقة ذات المائة دولار ، فإذا مالهف منك الورقة ، أعطاك بدلا منها رزمة من الأوراق ، ثم يجرى

قبل أن تكمل عدها بدعوى الخوف من البوليس ، لتكتشف أنك قد سرقت تماما . وأن سعر الحكومة كان أفضل لك بكثير !

وكل بولندى أو بولندية يتمنى أن يلهف ما يستطيع من الدولارات أو العملات المماثلة ، لكى يستطيع شراء ما لذ وطاب من الأسواق الحرة ، من السلع التى تخلو منها السوق المحلية ، أو لا تدخل فى بطاقات التموين ، أو لا يكفيه ما يحصل عليه منها بتلك البطاقات .

البن على سبيل المثال لا يباع إلا فى السوق الحرة ، ولذلك كانت الفتاة التى ذكرت أمرها من قبل ترسله إلى أهلها من انجلترا ، وكذلك السجاير والخمور المستوردة والشيكولاتة وأنواع العصير و « النقل » وخلافه من سلع الترفيه !

ولم أتعرض والحمد لله لحادثة « لهف » من هذا النوع بسبب التحذير المسبق ، إلا فى نهاية الرحلة وبمبلغ زهيد ، فقد تأخرت لطائرة وأحسست بالجوع ، وصعدت مع صديقين زوجين إلى مطعم المطار ، حيث تناولت أنا والزوجة كل منا طبقا من البيض المقلو ، أما الزوج فقد اكتفى بكوب من الشاى ، وكان الحساب حوالى ٣٧٠ زولوتا أى ما لا يزيد على أربعة دولارات بالسعر الرسمى ،

وأقل من دولار واحد بالسعر الحر وأخرجت عشرة دولارات من جيبى حيث كنت قد تخلصت من بقية الزلوتات . فما أن رأتها فتاة المطعم حتى خطفتها دون ان تنتظر حتى المداولة بينى وبين الصديقين حول من يدفع وبأية عملة ! وأعلنت أنها لن ترد باقيا ، لأن سعر التحويل فى المطعم هو ثلاثون زلوتا للدولار ! وهى كاذبة بطبيعة الحال ، فلا يعقل أن يكون سعر المطعم أقل من سعر التحويل الرسمى على هذا النحو ! ثم شيعتنا وخاصة العبد الله ، بنظرات تنم عن الاستخفاف وتشى بلذة الظفر بتسعة دولارات كاملة !

على أن الخوف من على بابا ، ليس مقصورا على خطف الدولارات وحدها ، فقد كانت ربة الدار التى نزلت بها تصر على إغلاق الباب من الداخل بالمفتاح والترباس رغم وجودها هى وابنتها وزوج ابنتها ، والضيف الذى تستضيفه فى الغرفة الخالية لديها ، مثلى ، ولا تفتح الباب إلا بعد أن تستوثق ممن يطرق الباب ، بدعوى انتشار اللصوص والخطافين الذين يطرقون الأبواب ولو فى رائعة النهار ، ليقتحموا الشقق ويستولوا على ما يمكن أن تصل إليه أيديهم ، وفهمت من حديثها ، دون أن تصرح ، أنها ذات نعمة

تخشى عليها من الضياع ، بسبب الغرفة الخالية عندها ، ويتاح لها أن تؤجرها للسياح ، حين تكون الفنادق مكتظة ، كما كان الحال معى ، وإن كنت أنا أقل نزلائها ثراء ، حيث أنها درجت على استقبال سياح أغنياء ، ممن يعمرون جيبها بالدولارات ، ويجعلون منها زبونة مستديمة للأسواق الحرة !

بين العشيق والزوج

كل من سألتهم عن سر الأزمة البولندية التى شغلت العالم ، ولا تزال تشغله ، كان جوابهم متشابها ، رغم اختلاف مشاربهم ، وتصورهم للمخارج من تلك الأزمة .

إحدى المتحذلقات قالت لى : إنها مشكلة جغرافية ، بالوقوع فى ظل جارة قوية كالاتحاد السوفييتى ، ولكن الجميع أجمعوا على أصل المشكلة هو وقوع بولندا بين الشرق والغرب . فهى – أى بولندا – تنتمى ، أو تحس بالانتماء إلى الحضارة الغربية ، رغم عمق جذروها فى الثقافة السلافية – ولكن تلك الجذور ذاتها لم تمنع لينينجراد – على سبيل المثال – من أن تحس أنها أكثر أوربية من موسكو ، لقربها النسبى من غرب أوربا ، ولأن بطرس الأكبر الذى

أنشأها والذى كانت تحمل اسمه قبل الثورة البلشفية ، قد حاول أن يجعلها « قطعة من أوربا » ، على طريقة المرحوم إسماعيل باشا عندنا ، واتخذها عاصمة لملكه وظلت كذلك ، حتى جاءت الثورة ، فأعطاها لينين اسمه ، ولكنه نزح عنها إلى موسكو ، التى عادت عاصمة لروسيا والاتحاد السوفييتى من جديد ، فرارا من ذلك الغرب الذى كان يوشك أن ينقض — وقد حاول أكثر من مرة ، على الثورة والثائرين . ولكن بالعودة إلى بولندا ، فهى أقرب للغرب من لينينجراد ، كانت تابعة للإمبراطورية الروسية ثم استقلت عنها ، وظلت إحدى دول الغرب حتى قامت الحرب العالمية الثانية ، بسبب احتلال النازى لها . وتقدم الجيش الروسى لمواجهته فيها قبل أن يتقدم إلى الحدود الروسية . وبعد الحرب وجدت نفسها بحكم كل الضرورات العسكرية والاستراتيجية والسياسية ، وباسم اتفاقية بوتسدام واحدة من دول المعسكر الاشتراكى ، ولكن روحها لا تزال معلقة بالغرب ، تماما كالفتاة التى تتزوج فى الريف ، وتبقى روحها معلقة بابن الجيران ، الذى كان يعاكسها أو يخرج معها فى المدينة !

السيدة العجوز قالت لى : الروس ينهبوننا ، يأخذون كل شئ ، الفحم والحديد والبترول ، ويتركوننا لا نحصل على شئ

إلا بالبطاقات ، السكر والسجاير والشاى واللحم ، الخ ، وأسألها عن الحل فتقول : الحل هو فى العودة إلى الرأسمالية ، وأن العهد الرأسمالى كان أفضل ؟! وإن كنت لا تصدقنى فاسأل ابنتى ..

وأعود بدورى لاسألها :

– من أين لابنتك أن تحكم عما إذا كانت الرأسمالية أفضل من الاشتراكية وهى قد ولدت فى العهد الاشتراكى ولم تر الرأسمالية وغزو النازى وفظائعهم ؟

فتجيبنى – دون أن تدرك مدى سخف إجابتها : والدتى شهدت العصر الرأسمالى وحدثتها عنه !

ولكن ندع مجتمع مؤجرى الشقق أو الغرف المفروشة فى وارسو ، والفاسدين من سائقى التاكسى ، والفتيات اللواتى يقفزن فيه إذا مارأين اجنبيا يستقله بدعوى الحصول على توصيلة مجانية والهدف هو التعرف ! وعصابة علي بابا من محترفى المضاربة فى العملة والنصب باسمها ، وهو المجتمع الذى يحيط بالسائح أو الزائر ويكون أول ما يلقاه هناك ، ليبهجه أو يغمه إذا ما نصب عليه أو ابتزه ، وغالبا ما يفعل ، فكل أفراد هذه الشريحة لابد وأن يحلموا بعودة

الرأسمالية ، ومكاسبها الطفيلية ، ولنذهب لنواصل البحث عن الحقيقة فى مكان آخر !

أخيرا تنبهت الحكومة البولندية إلى أن السائح لا يأتى بالنقد الأجنبى فقط ، ولكنه بهذا النقد يمكن أن ينهب الشعب البولندى ويحرمه من القليل الجيد الذى لديه . لذلك يحذرك المطلعون من أن تأخذ معك أى شئ اشتريته فى بولندا ، وإلا فإنه سوف يصادر فى المطار !

أما أين نجد الحقيقة ، أو قريبا منها فسوف أحدثك عنها فى رسالة أخرى ، من مدينة مقدسة فى بولندا تقع على مبعدة مئات الأميال جنوب وارسو ، وتدعى « شستاهوفا » .

* * *

٢٠ – هل تولد الدولية الخامسة في مدينة مقدسة ..؟ (*)

كانت الرحلة إلى « شستاهوفا » .. بناء على دعوة تلقيتها من واحدة من الشباب البولندى الذين قابلتهم فى لندن ، فتاة تدرس الإنجليزية وتعلمها فى بلادها ، وقد حضرت بدورها إلى إنجلترا لزيارة أستاذتها الاسكتلندية ، التى كانت تعلمها فى بولندا ، لصقل قدرتها على التحدث بالإنجليزية وسط أصحاب اللغة ، والتزود من المكتبات بما تستطيع حمله من كتب الأدب الانجليزى . ورغم أنها كانت أقدر من قابلتهم على التحدث معى ، لكنها كانت أكثرهم عزوفا عن الكلام فى السياسة أو فى شئ من شئون بلادها ، وهى خارجها ، رغم كونها صديقة لبعض المتحمسين والمتحمسات لنقابة « تضامن » .. ومن بينهم تلك التى أعطتنى شعار التضامن مرسوما على « مشبك » .

استغرقت الرحلة ثلاث ساعات من وارسو إلى شستاهوفا ،

(*) نشرت بمجلة الهلال فى مارس ١٩٨٣

بالقطار الدولى الذى يعبر الحدود إلى بودابست ، وقد خجلت من نفسى لأننى كنت الوحيد من بين ستة أشخاص جمعهم ديوان واحد فى القطار ، الذى لا يحمل شيئا يقرؤه ، كتابا أو صحيفة . فلم أكن أحسب المسافة طويلة هكذا ، وقلت : أسلى نفسى بالتطلع إلى المناظر من حولى حتى أصل ، أو بالدردشة مع بعض الركاب إن أمكن .

ولكن الوقت كان ليلا فلم أشاهد شيئا ولا يعرف أحد من الركاب حولى الانجليزية لكى يبادلنى الحديث .

وأمضيت الوقت فى مطالعة وجوه الآخرين من حولى تارة ، والتأمل تارة أخرى ، أو قطع حالة الملل والحرج ، بالخروج إلى الممر للتدخين بحرية ، غير مسموح بها داخل ديوان القطار ، وحرية أخرى من السفهاء غير ذوى الكرامة ، الذين التقيت بهم فى المحطة قبل صعودى إلى القطار ، حيث وصلت مبكرا قبل قيامه بساعتين ، وفى كل مرة كنت أخرج فيها علبة سجائرى « المالبورو » كان يلمحنى أحد المتسكعين فى المحطة . أحدهم كان رث الهيئة خلافا لمن حوله ! وكان يبدو عليه أنه أحد الضائعين من المتبطلين بإرادتهم أو السكيرين ، طلب سيجارة وأخذها وانصرف ، والآخر كان غلاما

رقيعا حاول أن يحدثنى بانجليزية سقيمة عن الجنس مقابل سجائر المارلبورو : فأعطيته واحدة منها ونهرته ، ورحت بعد ذلك أخرج السيجارة من العلبة داخل جيبى دون إخراج العلبة حتى أخلص من أمثال هذين ! وقد علمت فيما بعد أن « المارلبورو » لها قصة فى بولندا .

فقد سبق للولايات المتحدة الأمريكية أن أقامت مصنعا فى بولندا لإنتاجها ، حتى اعتاد المدخنون البولنديون عليها ، ثم قامت بإغلاقه بعد ذلك ، حينما لم يسقط النظام البولندى تحت وطأة الأزمة الداخلية . بدعوى عجز الحكومة البولندية عن سداد التزاماتها للشركة الامريكية التى أنشأت المصنع ! كأنما الشعب البولندى سوف يسقط حكومته لأنه « خرمان » مارلبورو » أو يستحق — كنوع من العقاب — أن يبقى « خرمان » — إذا لم يفعل ؟!! نحمد ربنا أن الشعب المصرى مازال معظمه « كييف » كليوباترا .. « بس وفروها يا عالم » !

طوارئ أنيقة

هل ذكرت شيئا من قبل عن أناقة البولنديين وحبهم للنظام والنظافة ؟

إذا كنت لم أفعل فعلى أن أعود إلى سيرة التاكسى ، وقد قلت فيه ما قلت فى الحلقة السابقة ، ولكن من حيث هو خدمة ينبغى أن نشهد له . أنت لا تستطيع عادة أن تشير إلى تاكسى فى الطريق داخل وارسو فيقف لك ، ولكنك واجد عند كل ناصية شارع موقفا للتاكسى ، عليك أن تقف فى آخر الصف من الواقفين فى انتظاره وكل بدوره ، سواء السيارات أو الركاب ، وأحيانا — لتسهيل الحركة على الجميع إذا كان عدد المنتظرين كبيرا — يعلن سائق التاكسى عن الجهة التى سوف يقصدها طبقا لمطلب أول راكب فيه ، حتى يلحق به ويشاركه من كان يقصد ذات الجهة من المنتظرين .. بالدور أيضا . ويعمل التاكسى بالعداد ، ولكن مع ارتفاع الأسعار وعدم تغيير العدادات ، صرفت الحكومة لسائقى التاكسى بطاقات تتضمن بيانا بالمقابل الجديد لكل « توصيلة » يشير إليها العداد .. حبذا لو فكرنا فى اقتباس هذا النظام الذى لا يكلف شيئا ، بدلا من الفوضى الحالية ، سواء فى الركوب أو الدفع ! والذين ابتدعوا هذا النظام فقراء أمثالنا . وربما أكثر أو يبدون كذلك ! وللعلم ، فالتاكسى فى بولندا بعضه مملوك للأفراد ومعظمه ملك الحكومة ، ولا فرق فى المعاملة .

عن النظام أيضا والحرص عليه ، أنه فى المحلات العامة ، يقف الرواد ، فى صف أو « طابور » لمجرد تسليم المعاطف والقبعات والشماسى عند الدخول ، أو استردادها عند الخروج ، بلا مزاحمة أو تذمر .

ذكرنى بحديث النظام والأناقة هذا ، ما فعلته الفتاة التى كانت تجلس على المقعد المواجه لى فى القطار المتوجه إلى شستاهوفا ، خلا المقعد بجوارى من الراكبة التى نزلت فى إحدى المحطات ، وأرادت الفتاة أن تريح ساقيها بتمديدهما على المقعد المقابل .. قلة أدب أى نعم ولكنها فعلتها بأناقة .. أخرجت من حقيبتها صحيفة ثم فرشتها على المقعد الذى تريد أن تضع عليه قدميها ، ولم تسند نعل « البوت » الذى ترتديه إلى المقعد ، ولكنها وضعت مؤخرته النظيفة نسبيا ، ولم تنس لكى تخفف من سخافة المنظر ، أن تخرج ورقة « كلينكس » تمسح بها البوت وهو فى هذه الحالة . أين هذا من الشباب الإنجليزى ، الذى يسند قدميه ويمدهما كيفما اتفق ، حتى اضطررت مرة أن أنهر شابا أيرلنديا وضع قدميه « بعبلهما » على المنضدة أمامى فى صالون الفندق .

بالمناسبة ، مازالت عادة تقبيل أيدى النساء عند مصافحتهن منتشرة فى بولندا رغم أنها أوشكت على الانقراض من معظم العالم ، وربما كان ذلك سببا من أسباب « المياصة » الزائدة لدى المرأة البولندية !

ولكن الأناقة امتدت إلى أكثر من ذلك .

طلبت مكالمة تليفونية للسفارة المصرية ، وقبل أن يجيب الطرف الآخر ، كان صوت نسائى مسجل على شريط يعلن أن هذه المكالمة تخضع للرقابة ، وكذلك كان على البرقية التى وصلتنى من الصديقة فى شستاهوفا تدعونى إلى زيارتها هناك ما يشير إلى أنها خضعت للرقابة ، اعتبر من ذكرت لهم ذلك من البولنديين أنه إجراء بغيض من إجراءات حالة الطوارئ التى كانت لا تزال مفروضة . ولكن بعض الدوائر الدبلوماسية عقبت على ذلك ، بأنه نوع من لتأدب فى فرض الرقابة ..

وحينما وصلت مساء إلى شستاهوفا ، لم أجد غرفة خالية فى أى فندق ، فتوجهت إلى منزل الصديقة المذكورة . ولاحظت من الشباك صفا من المشاعل مضاء على طول طريق مجاور فسألت عنه ، فقالوا لى إن أنصار التضامن قد أوقدوها كنوع من الاحتجاج

المهذب المستمر على استمرار حالة الطوارئ . وحينما ذهبت فى صباح اليوم التالى لزيارة كاتدرائية « جاسناجورا » من أهم معالم المدينة ومصدر مكانتها ، لاحظت صليبا من الزهور ، يبدأ من عند قاعة التمثال المقام للعذراء فى مدخل حديقة الكنيسة ويمتد بطول الطريق المفضى إليه لعدة مئات من الأمتار ، وسألت عن ذلك فقيل لى أيضا إنه من باب الاحتجاج على استمرار حالة الطوارئ ! ووجدت إلى جانب بداية الصليب الزهرى فى أول الطريق شعار التضامن مرسوما على الأرض ثم مطموسا باللون الأبيض بحيث اختفت حروفه ولم تخف هيئته الكلية المشهورة !

أناقة فى الطوارئ ، تقابلها أناقة فى المعارضة ، بالقناديل والزهور !

مسألة مستوى

لم ألحظ نقصا ذا بال فى حياة « الأسرة الطبيعية » ، التى نزلت عندها ضيفا فى شستاهوفا ، والتى لا تملك دخلا طفيليا من نوع بيوت الضيافة المأجورة فى وارسو ، الأب مهندس على المعاش ، والأم لا تزال تعمل مدرسة ، ولديهم ابنتان ، الكبرى ربة منزل ولها طفل

رضيع وتعيش مع والديها ويأتى إليها زوجها كل أسبوع . والثانية ، الفتاة التى تعرفت بها فى لندن ، تدرس وتعمل مدرسة فى بلد آخر قريب من شستاهوفا وزوجها يعمل فى أحد مصانع الألبان فى مدينة ثالثة ، ويلتقيان أيضا فى نهاية الأسبوع .

النقص الظاهر الملحوظ هو فى المسكن المكون من غرفتين فقط ومدخل وحمام ، ولكنهم يحتالون على الإقامة فيه عن طريق الأثاث العصرى ، حيث تتحول الأرائك التى تستعمل للجلوس نهارا ، إلى أسرة ينامون عليها ليلا ، والمائدة إما صغيرة فى المطبخ ، أو أوسع قليلا « تنزل » من بين رفوف المكتبة فى الغرفة الرئيسية ، وفهمت أنهم عجلوا بتزويج إحدى الفتاتين لكى يرثوا الشقة التى أخلتها الجدة التى توفيت حديثا حيث « للعرسان » الأولوية فى الحصول على مسكن وخاصة إذا كانوا من أقارب أصحاب الشقة الأصليين .

رحت أسأل الفتاة : م تشكون إذن وما سر الأزمة التى أقامت العالم ولم تقعده ؟! قالت :

– إننا لا نجد كل ما نريد ! ..

□ لا تجدون ما تريدون ، أو لا تجدون ما تحتاجون ؟!..

– ليس إلى هذا الحد ، ولكننا عوملنا كأننا حيوانات

□ كيف ؟!..

– أحيانا لم تكن نجد ورق التواليت ؟!

□ يا سلام ؟! يستطيع الإنسان أن ينظف جسده فى هذه الحالة إما بالماء أو حتى باوراق الصحف القديمة .

– كنا بالفعل نضطر إلى مثل ذلك !
والسيدات أيضا ، أحيانا كن لا يجدن القطن اللازم فى حالات الطمث .

ثم قلت لها : تعالى إذن نبدأ من أول مطالب الإنسان الأساسية ، ولا تحدثينى عن المساكن فقد عرفت حجم أزمتها ، وهى على كل حال أزمة عالمية ..

□ ماذا عن الطعام ؟

– هناك نقص شديد فى بعض المواد الغذائية .

□ هل تقفون فى طوابير من أجل الخبز ؟

– كلا .

□ ماذا عن اللحم ؟

– فى أيام الأزمة كان مخصصا للعامل الذى يعمل بيديه ثلاثة كيلو جرامات فى الشهر ، والذى يعمل بذهنه ٢ كيلو جرام فقط .

□ إذن فالأسرة المكونة من أربعة أفراد مثل أسرتكم تستطيع الحصول على ثمانية كيلو جرامات من اللحم على الأقل كل شهر وذلك مقدار لا بأس به ، ماذا عن الزبد واللبن ؟

— الزبد متوفر وكذلك الجبن ، أما اللبن فأحيانا كنا لا نستطيع الحصول عليه إلا للأطفال فقط .

□ والبيض ؟!..

— كان هناك نقص شديد فيه ، حيث منعت أمريكا علف الدجاج الذى يصنع البيض .

□ ألا يستطيع الخبراء البولنديون تطوير علـف آخـر للدجاج ؟! .. ماذا عن الفواكه والخضروات ؟! ..

— بعضها متوفر كالتفاح ، ولكن الموالح غير متوفرة ، ونحن على كل حال بلد زراعى

□ هل تكفى مواردكم لشراء الأنواع الموجودة ؟

— نعم .

□ هل اشتكى احد من نقص التغذية ؟!

— ليس إلى هذا الحد .

□ ما رأيك فى انجلترا ، التى التقينا فيها فى العام الماضى ، وكانت

هناك بعض الدراسات عن نقص التغذية لدى أسر المتعطلين ؟ ..
انتقل إلى بند الثياب ..

– أحيانا يحتاج أحدنا إلى تجديد بعض قطع ثيابه ، جاكت أو بلوفر جديد مثلا ولا يجد .

□ ولكن أحدا لم يشتك عريا أو شعورا بالبرد لأنه لا يجد ما يلبسه ؟! ..

– كلا ..

□ ماذا عن السجاير والكحول وحكاية المارلبورو ؟! ..

– لكل فرد حسب البطاقة ثلاثون علبة سجاير فى الشهر وزجاجة واحدة من الفودكا .

□ أنا مدمن تدخين وأعتقد أن علبة سجاير واحدة فى اليوم تكفى وإذا لم تكن كذلك فلا يعدم أحدكم أن يكون فى الأسرة من لا يدخن فيتنازل له عن نصيبه من السجاير .. أليس كذلك ؟! ..

– هو كذلك ، ولكن سلعا أخرى يطول انتظارها حتى تتوفر ، كالأثاث مثلا .. اسمع . لقد قالت لى أستاذتى الاسكتلندية أنها كانت تفضل الاقامة فى بولندا عنها فى إنجلترا ، لأنها فى وارسو مثلا كانت تفرح إذا ما ذهبت إلى أحد المحلات ووجدت سلعة طال

انتظارها لها . ولكنها تفتقد فى إنجلترا مثل تلك البهجة ، لأن السلع متوفرة دائما فى المحلات !

▫ ولكن لا شك أنك تذكرين أنه فى إنجلترا فى ذات الصيف الذى التقينا فيه قامت اضطرابات واسعة النطاق بين المتعطلين الذين كانوا يهاجمون المحلات للاستيلاء على ما فيها من سلع لا يملكون ما يكفى لشرائها ، أليست ندرة بعض السلع مع توفر الضرورى ، مع انعدام البطالة ، أفضل من ذلك الوضع فى الدول الغربية ، حيث أحيانا لا يجد المتعطلون ما يكفى لدفع ثمن مطالب أساسية مثل أجور مساكنهم وتزويدها بالغاز والكهرباء وما إلى ذلك ! إننى أرى أن المسألة بالنسبة لكم هى مسألة مستوى تتطلعون إليه أو تحاولون الاحتفاظ به فى ظل الأزمة العالمية . أليس كذلك ؟!

— إنها بالفعل مسألة مستوى ...

▫ وماذا عن الديون الهائلة التى تراكمت على بولندا لحساب البنوك الغربية ؟! ..

— لقد كان جيريك – رئيس الوزراء الأسبق – رجلا طموحا ، أراد أن يجعل بولندا مثل فرنسا ، فاقترض كثيرا من الغرب ليتوسع فى

إنتاج الطائرات والبواخر وما إلى ذلك من الصناعات الكبرى ، ولكن الأسواق الغربية أغلقت فى وجهه .

□ لقد هدد الأمريكان بإعلان إفلاس بولندا وعجزها عن دفع الديون ، فلماذا لم يقدموا على تلك الخطوة ؟!

— لأنهم يعلمون أن وراءنا الاتحاد السوفييتى ، وهو الذى يشترى الآن منتجاتنا التى أقفلت الأسواق الغربية فى وجهها ، ولن يكسب الغرب من إعلان إفلاس بولندا إلا السخط عليه ، بدلا من السخط على الروس !

الدولية الخامسة

وأخيرا وجدت ضالتى عند والد الفتاة ، فلم يكن من أنصار الحكومة ، ولا من نوع المسيحيين الذين يعادون الشيوعية على أساس عاطفى مثل فاونسا ، فقد كان عضوا فى الحزب الشيوعى ، ثم كف عن حضور اجتماعاته بعد إحالته إلى التقاعد ، وصار من أشد المتحمسين للتضامن ، حيث يجمع شعاراتها ، ويحتفظ بالبرقيات المراقبة كوثائق ضد حالة الطوارىء التى ألغيت فى مطلع العام الجديد .

قال :

— إننا لن نرد الأراضى إلى الإقطاعيين ، ولا المصانع إلى الرأسماليين ولكننا سئمنا اشتراكية البلدان المتخلفة ، الاشتراكية التى تقوم على القهر ، ولا تستفيد منها إلا فئة محدودة ، هى أعضاء الحزب الحاكم .

□ قال ذلك ثم أطلعنى على مقال فى صحيفة اسمها « هنا والآن » ، بقلم الكاتب الكسندر مينيكوفسكى يقول فيها :

« الاشتراكية أفضل نظام فى العالم إذا كانت حقيقية ، ولكن مثل هذه الاشتراكية لا توجد الآن ، والله لن يعطيها لنا ، وإنما ينبغى أن نصنعها بأنفسنا . وإذا كانت أوضاعنا أفضل قليلا من بلغاريا وأسوا قليلا من ألمانيا الشرقية والمجر ، حيث يصنعونها أفضل ، ففى كل مكان لا توجد هذه الاشتراكية الحقيقية » .

وعقب محدثى على ذلك بقوله إن هذا الكلام يقال الآن فى ظل حالة الطوارىء ، بينما لم يكن مسموحا بأى نقد قبل ذلك .

□ قلت : أفهم من ذلك أنكم تنادون بالاشتراكية الديموقراطية ؟! ..

– نعم ، نريد اشتراكية حقيقية وديموقراطية حقيقية .

قلت :

□ لقد شرعت الأحزاب الشيوعية فى غرب أوربا فى التخلى عن فكرة ديكتاتورية البروليتاريا ، وها أنتم تطالبون بذات المطلب فى بولندا ، فهل يعنى ذلك أن دولية جديدة على وشك أن تولد ، تجمع بين اشتراكية الشرق « الحقيقية » التى تمثلها أحزاب الدولية الثالثة الشيوعية ، وديموقراطية الغرب « الحقيقية » ، التى تمثلها أحزاب الدولية الثانية الاشتراكية الديموقراطية ، بحيث تتشكل الدولية الخامسة من الاثنتين ؟!

– ربما ! ....

ولكن ذلك يقتضى منكم نضالا واسعا فى صفوف الطبقات العاملة والأحزاب الشيوعية فى شرق أوربا وخاصة من الناحية النظرية على نحو قد يجعل من بلادكم طليعة لمرحلة جديدة فى الفكر الاشتراكى ، وتطبيقه ، خاصة والفراغ الأيديولوجى . يخلى مكانه للحكم العسكرى وحكم الأجهزة .

- ذلك ما نحاوله ! ...

□ وماذا عن دور الكنيسة التى تبدى مساندتها للتضامن ؟

– الكنيسة مؤسسة مثلها مثل الحزب الشيوعى ، لها مصالحها الذاتية ، التى تسعى إليها ، ولكننا نسعى لمصلحة الشعب البولندى .

بالمناسبة شستاهوفا ، كما ذكرت من قبل هى مقر كنيسة « السيدة السوداء » وتضم صورة قديمة للأسرة المقدسة ، جاءت من الشرق منذ أكثر من ستة قرون تصور العذراء ووليدها الطفل فى بشرة سمراء داكنة وربما كان الذى رسمها حبشيا ، ويعتقد البولنديون أن إطارها صنع من خشب المائدة الأصلية للسيدة مريم عليها السلام ، ويعتبرونها رمزا للاستقلال الوطنى حيث حاول السويديون فى الماضى تدمير تلك الصورة ودافع عنها البولنديون ببسالة ... ويأتى إلى شستاهوفا كثير من الحجاج الكاثوليك لزيارة كنيسة السيدة السوداء ، من داخل بولندا وخارجها ، وخاصة بعد اختيار البابا من بولندا . وقد توجه ليخ فاونسا بعد خروجه من إقامته الجبرية فى وارسو إلى شستاهوفا ، التى تعتبر مدينة مقدسة ، وبها نبع ماء لا تقل عذوبته عن ماء النيل .

أعود إلى الحوار مع محدثى الماركسى التفكير ، الذى كانت ابنته وزوجها يركعان ويرسمان علامة الصليب كلما توجها معى إلى إحدى الكنائس . سألته :

▫ ألا تعتقد أن نفقات التسلح الباهظة هى المسئولة أساسا عن المتاعب الاقتصادية فى الدول الاشتراكية ؟!

– بالطبع هذا عنصر لا يمكن إغفاله .

▫ بناء عليه ، أليس النضال من أجل الكف عن سباق التسلح هو المهمة الأولى « للدولية الخامسة » المزمع تشكيلها من جماع الاشتراكيين الديموقراطيين فى شرق أوربا وغربها وسائر العالم .... خاصة وأن نظريات جديدة قد شرعت فى الظهور تقول إن هناك مصالح مشتركة بين القوى الحاكمة فى الشرق « الاشتراكى » والدوائر المالية العاتية فى الشركات المتعددة الجنسيات فى الغرب الرأسمالى ، تجعلهم يستفيدون من هذا الوضع بما فيه سباق التسلح بين دولهم ، وعلى حساب شعوبهم ، كما يقول مؤلف كتاب « الفودكا كولا » ؟!

لم أسمع بهذه النظرية من قبل ، وربما كانت صحيحة .

حاولت أن أجر محدثى البولندى بعد ذلك ، إلى موضوع الخزر ، وسطوتهم العالمية فى كلا المعسكرين ، ولكنه أعرض عن هذا الحديث ، ظنا منه أننى أريد سحبه إلى قضية تخصنا نحن العرب ، واكتفى بالقول بأن « التضامن » تؤيد حقوق الشعب الفلسطينى .

وتذكرت زوجين شابين من كندا التقيت بهما فى لندن ، دارت بينى وبينهما مناقشة حادة حول موضوع العدوان الصهيونى على بلادنا ، وكانا يحملان فى البداية بشدة على منظمة التحرير الفلسطينية ، ورفضها الاعتراف بحقوق إسرائيل ! وما أن شرعت أشرح لهما موضوع الخزر ، وكذب دعواهم فى فلسطين ، حتى ران عليهما الصمت والاهتمام ، ولمعت فى عيونهما الشابة الرغبة فى معرفة الجديد والمزيد ، وانتهى لقائى بهما بمصافحة حارة ، وتساؤل على شفاههما ؛ لماذا لا نرسل إليهم — نحن العرب — من يحاضرونهم فى هذا الموضوع فى بلادهم ؟

وأقول معهما لأنفسنا نحن العرب : حقا ! لماذا لا نفعل ؟!

* * *

٢١ – القرابة العربية والغرباء عن أرضها (*)

فى صيف عام ١٩٨١ ، تعرفت فى لندن إلى سيدة لبنانية مارونية ، من قريبات الرئيس اللبنانى الأسبق الياس سركيس ، كانت تنزل فى ذات الفندق الذى أنزل به ، حيث كانت تستعد للحصول على درجة الدكتوراه فى مناهج تدريس الرياضيات ، من إحدى الجامعات البريطانية . أول ما التقيت بها كانت تتبادل الحديث مع فتاة مصرية تعمل بالفندق ، وكان حديثهما طافحا بالشجن والمرارة : كان وجهها مربدا وهى تقول ما معناه أن كل الكوارث التى حلت بلبنان سببها العرب والارتباط بالعروبة ! وكان أن اكتفيت بالتعارف الشكلى ، ولم أشأ الخوض معها فى جدال لا طائل من ورائه .

وبعد أيام التقيت بها مرة أخرى . كان وجهها متهللا وصوتها يفيض بالحماسة ، راحت تروى لى واقعة حدثت لها فى أحد متاجر لندن ، ولعله محل لبيع الأحذية ، قالت إنها لاحظت أن البائع

(*) نشرت بمجلة الهلال فى نوفمبر ١٩٨٣

البريطانى راح يسخر مع بعض عملائه أو معاونيه ، من سيدة عربية من إحدى دول الخليج ، دخلت إلى متجره لتشترى منه ، وهى بزيها البدوى التقليدى ، ولا تحسن التعبير عن نفسها بالإنجليزية . ولم يخطر ببال صاحبنا أن السيدة الشابة ذات الوجه الأشقر والملابس الأوربية ، والتى تتكلم الانجليزية بطلاقة ، أعنى بذلك صاحبتنا اللبنانية ، هى الأخرى من بنات العرب ! وقدْ فاجأته – كما روت لى – باللوم العنيف على ما بدر منه فى حق السيدة البدوية دون أن تشعر به هذه الأخيرة ، وهددته بأنه إن لم يتوقف ، فسوف تنبهها هى إلى وقاحته ، الأمر الذى يعنى أن تنصرف هذه السيدة عن الشراء من محله ، ولعلها توصى معارفها أيضا بعدم التعامل معه . وراحت تروى لى فى نشوة غامرة ، كيف أسقط فى يد الرجل ، وراح يعتذر لها فى ذلة ، ويتوسل إليها ألا تفضحه !

كانت تلك هى الحالة الطبيعية ، أو الحالة الصحيحة ، للصديقة المارونية ، أن تشعر بالغيرة على العروبة ، وعلى الناطقين بها ، فى مواجهة الأجنبى ، الذى ربما كان أقرب إليها من حيث العقيدة الدينية ولكن تلك القرابة لم تجعلها تنسى قرابة أخرى ، مع تلك التى تتحدث بذات اللسان ، الذى تلقته هى عن أمها ، قبل

أن تتعلم الكلام بلغة أو لغات الأوربيين ! أما الحالة الأولى التى رأيتها عليها ، وهى تحمل على العرب ، فكانت حالة مرضية صنعتها محض الظروف السياسية ، وبعض الأوهام التى يروج لها فريق من محترفى السياسة . وأذكر أن الصداقة توطدت بينى وبين تلك السيدة ، وتبادلنا كثيرا من الأحاديث فى ردهات الفندق ومطعمه حول أمور شتى فى الفكر والاجتماع ، دون الخوض فى المسائل السياسية . وقدمتنى إلى بعض أقاربها ومعارفها ممن كانوا يأتون لزيارتها ويعملون أو يدرسون فى انجلترا ، أذكر من بينهم شابا مسلم الديانة ، يحمل ذات الاسم الأول الذى أحمله ، ولعله كان متزوجا من إحدى قريباتها ! وقد دامت تلك الصداقة بيننا حتى حصلت على درجتها العلمية وسافرت إلى بلادها . ومن مفارقات الزمن أننى قصدت إلى بيروت بعد شهور قليلة من رحيلها ، ولكننى لم أحاول الاتصال بها هناك مرة أخرى ، فقد كانت محاولة ذلك ، ولو عن طريق المكالمة التليفونية تنطوى على ضرب من المجازفة ، بحكم الأوضاع السياسية ، التى شطرت بيروت إلى شطرين واحدة شرقية وأخرى غربية ، هى التى كنت أقيم فيها !

وأذكر أيضا – من تلك الفترة – أننى تعرفت إلى شاب

سورى من مسلمى السنة وكان يدرس فى انجلترا ويعمل أيضا فى ذات الفندق الذى كنت أنزل فيه ، وكان له صديقان لبنانيان لا يكادان يفارقانه ، أحدهما درزى ، والآخر مارونى ، كانت المهاترات الطائفية بين اثنين منهم تقع أحيانا ولا تتجاوز حد المزاح ، بينما يحرص كل منهم على صداقة أخيه ويشاركه همومه فى العمل أو الدراسة أو اللهو ! وكثيرا ما كانوا يسهرون معى فى صالون الفندق وحيث كانت مشاكل « العروبة » وهمومها هى الموضوع المفضل للسمر الطويل .

لقد تداعت إلى ذهنى تلك الذكريات ، مع نشوب « حرب الجبل » فى لبنان ، فى سبتمبر الفائت ، بين فريقين من الشعب اللبنانى ، أحدهما مليشيا الحزب التقدمى الاشتراكى ، الذى يتبعه الدروز بزعامة وليد جنبلاط ، والثانى مليشيا حزب الكتائب المارونى ، والجيش اللبنانى الرسمى ، الذى قيل إن أبناء الطوائف الأخرى غير الموارنة قد هجروه وتركوه لا يكاد يكون هناك فرق بينه وبين مليشيا الكتائب ، وخاصة وقائده هو فى الوقت ذاته مدير العمليات بتلك المليشيا !

وفى تلك الحرب ترددت من جديد أصداء قديمة كانت

تسمع فى لبنان . فقد قيل مثلا عن نزوح الموارنة من قريتهم « دير القمر » فى الجبل اللبنانى ، أمام زحف الدروز ، إن ذلك يعنى تطهير الجبل من الغرباء ؟! وهو ذات التعبير الذى كانت تستخدمه الكتائب وهى تتحدث عن تطهير لبنان كله من « الغرباء » وتعنى بهم الفلسطينين الذين لجأوا إلى لبنان هربا من البطش الصهيونى واغتصابه بلادهم !

لقد قيل إن مسئولية تلك الحرب ونشوبها على هذا النحو ، تقع على عاتق الدولة الصهيونية ، حينما عجلت بانسحابها من الجبل ، لينشب القتال بين الطائفتين الدرزية والمارونية فى لبنان . وكان موقفا مشينا أن ينتظر فريق من العرب من الاحتلال الاسرائيلى أن يبقى فى قطعة من أرض بلادهم لحفظ النظام فيها فيما بين أبنائها ! على أن مسئولية الدولة الصهيونية تبدأ من ساعة قيامها وطردها الفلسطينيين من ديارهم مما أوجد مشكلة اللاجئين فى لبنان . وهناك انقسم الموقف إزاءها ، فمال حزب الكتائب إلى الضجر من وجودهم ، واعتبرهم مصدرا للمتاعب ، ومن بينها تعرض لبنان لهجمات الدولة الصهيونية ردا على أعمال المقاومة ضدها ، التى تنطلق من أرض لبنان . ولهذا تحالف حزب الكتائب مع الدولة

الصهيونية حينما اجتاحت جيوشها أرض لبنان لإخراج المقاومة الفلسطينية منها ، بينما كانت تلك المقاومة تحظى بتحالف قوى لبنانية أخرى من غير الطائفة المارونية ، ترى وحدة القضية العربية إزاء الخطر الصهيونى الذى يهدد الفلسطينيين وغير الفلسطينيين .

ولقد توهم حزب الكتائب بالنزعة الفاشية المسيطرة عليه ، أن إخراج الفلسطينيين على أيدى القوى الصهيونية هو الفرصة السانحة لإقامة الدولة المارونية وبسط سيطرة الحزب بنظرته المتعصبة على كل ربوع لبنان . وظنوا أن تحالفهم مع الدولة الصهيونية سوف يطرد لتحقيق هذا الغرض . فلما نشب القتال فى الجبل .. ورجحت كافة مليشيا الدروز ، راحوا يناشدون الحكومة الصهيونية أن تتدخل فى القتال إلى جانبهم بدعوى وجود مقاتلين فلسطينيين فى صفوف الدروز ! ولكن فاتهم أن الدولة الصهيونية إنما دخلت لبنان لتعمل من أجل غرضها هى وحدها وليس من أجل سواد عيون حزب أو طائفة بعينها فى لبنان .

والدروز بدورهم كان لهم موقف جعل من المتعذر على إسرائيل أن تقبل توسلات الكتائبيين فى حالة انكسارهم ، فهم لم يشتركوا فى القتال ضد جيش الاحتلال الإسرائيلى حالة اجتياحه

لبنان ، بدعوى أنهم لا يستطيعون التصدى لقوة متفوقة عجز جميع العرب عن التصدى لها وهو عذر صحيح فى حد ذاته ! ولأن لديهم مواجهة أخرى هى من شأنهم هم ، مع الموارنة ! وهى المواجهة التى وقعت بالفعل بعد الانسحاب الإسرائيلى من الجبل . وهذا الموقف بدوره يتصل به موقف الدروز فى إسرائيل ، الذين قال عنهم وليد جنبلاط إنهم قد أصبحوا قوة ضاغطة داخل المجتمع الإسرائيلى تمنع الدولة الصهيونية من أن تبدأ بالهجوم على إخوتهم من دروز لبنان ! فالدروز فى إسرائيل ، دون سائر العرب ، قد قبلوا بوجود الدولة الصهيونية إلى حد الانخراط فى جيشها ، بحيث يقال إن الجيش الإسرائيلى يضم اثنى عشر « جنرالا » درزيا ! وأن هؤلاء قد طلبوا التدخل فى حرب الجبل .... إلى جانب إخوتهم من دروز لبنان ! وأن بعض الضباط والجنود الدروز فى الجيش الإسرائيلى قد شرعوا فى الهرب بالفعل من صُفوف هذا الجيش والانضمام إلى مليشيا الدروز فى حرب الجبل ! وقيل إن إسرائيل تحاول تشجيع الدروز على إقامة دولة خاصة بهم تكون متحالفة معها ، الأمر الذى يعنى تقسيم لبنان ، وأخيرا وبعد أن يئست الكتائب من تحويل الموقف الإسرائيلى لصالحها ، راحت تتهم الدولة الصهيونية – حليفتها السابقة – بأنها

قد سلحت الدروز بأسلحة متفوقة ، وكان الدفاع الإسرائيلى إزاء تلك التهمة ضربا من السخرية من الجميع ، جميع العرب على مختلف ألوانهم ، فقد قالت إنها قد سلمت للدروز فحسب ... الأسلحة التى غنمتها من الفلسطينيين ! .

ذلك ضرب من تعقيدات الموقف الذى نشأ فى لبنان بصفة خاصة لمجرد قيام الدولة الصهيونية : فهى فى الوقت الذى تبشر فيه قولا وعملا بقيام الدولة على أساس طائفى ، باغتصابها أرض فلسطين ، واعتبارها دولة لجميع اليهود فى العالم فهى لا تملك فى الوقت الحالى على الأقل المخاطرة بإغضاب الطائفة الوحيدة التى قبلت بوجودها على أرض فلسطين وهى الدروز التى أعطاها موقف تلك الطائفة مسحة من العلمانية والديموقراطية هى بحاجة إليها للأغراض الدعائية . وفى الوقت الذى تحاول فيه الدولة الصهيونية الزراية على الصيغة اللبنانية التقليدية ، وهى التعايش بين الطوائف الدينية المختلفة ، وهى الصيغة التى يحتج بها الفلسطينيون عليها ، أقول إنها فى الوقت ذاته لا تملك أكثر من محاولة تدمير تلك الصيغة بإثارة الصراع بين مختلف الطوائف داخل لبنان ، دون أن تصل إلى حد مساندة قيام دولة طائفية خالصة فيه من النوع الذى يحلم به

حزب الكتائب . فالدولة الصهيونية لا تأمن على علاقاتها بالغرب ، لو نجح هذا الحزب فى إقامة دولة الصليب » ! فإنها سوف تكون فى هذه الحالة أقرب رحما إلى الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، من دولة « نجمة داوود » ! التى سوف يتقلص آنذاك الاعتداد بها والاعتماد عليها ، وذلك ما أوجد نوعا من التناقض ما بين السياستين الأمريكية والإسرائيلية ازاء حرب الجبل ... جعل الولايات المتحدة الأمريكية عاجزة عن الاعتماد على يدها الباطشة التقليدية فى المنطقة وهى الدولة الصهيونية ، فى صد هجمات المليشيا الدرزية على مداخل بيروت ، ومن ورائها التعزيز السورى ، والتأييد السوفيتى ، حتى اضطرت إلى استخدام مدفعية الأسطول السادس لوقف هذا الزحف ! ويقال إن بعض الكتائبيين هم الذين كانوا يقصدون استفزاز « قوات حفظ السلام » الغربية ويطلقون عليها مدافعهم ويصيبيون بعض أفرادها ويتهمون الدروز بذلك ، لاستدراج الدول التى تتبعها تلك القوات إلى القتال إلى جانبهم ، وبالفعل نجحوا فى إشراك كل من أمريكا وفرنسا فى القتال بالمدفعية والطائرات ، حتى لقد قال وليد جنبلاط إنه لولا مدفعية الأسطول السادس لاجتاحت قواته بيروت وأسقطت الحكومة القائمة هناك !

وأعلنت أمريكا بدورها أن مدفعيتها قد تدخلت ليس لصد الهجوم على أفراد القوة الأمريكية وقوات حفظ السلام فى لبنان فحسب كما كان يقال أولا ، بل أيضا للدفاع عن الحكومة « الشرعية » فى لبنان !

ومع ذلك فالقضية التى قاتل من أجلها الدروز ، تحت لواء الحزب التقدمى الاشتراكى ، كانت هى قضية علمانية الدولة اللبنانية وديموقراطيتها وتمثيل حكومتها لجميع الطوائف فى مواجهة التعصب العنصرى لحزب الكتائب وحرصه على صبغ الدولة كلها بالصبغة المارونية ، والاحتفاظ لتلك الطائفة وحدها بجميع مفاتيح السلطة والامتيازات الطبقية الموروثة من أيام الاحتلال الفرنسى للبنان ، أيام كان الموارنة يعتبرون أنفسهم فرنسيى الشرق ! وهم ينسون أن فرنسا لم تعد هى القوة الغربية ذات التأثير الأول فى المنطقة ، بل هناك الولايات المتحدة الأمريكية ، وربيبتها الدولة الصهيونية ، التى أضرمت نار الطائفية من جديد فى لبنان ، وفى سائر المشرق العربى . والتناقض بينها وبين سائر العرب ، بمن فيهم الموارنة يفوق أى تحالف جزئى موقوت مع هذه الطائفة أو تلك ، من ذلك على سبيل المثال أن الكتائب قد رحبت بالاجتياح الاسرائيلى للبنان فى العام الماضى بوهم أن الدولة الصهيونية سوف تعمل على إزالة الفلسطينيين

جميعا من أرض لبنان ، والواقع أن هذه الأخيرة كانت تستهدف المقاتلين منهم فحسب بتلك الإزالة ، ولكن ما أن وضعت أقدامها على أرض لبنان ، حتى شكلت لجنة وزارية لتثبيت الفلسطينيين ! وتعنى بهم ما يقارب ربع مليون فلسطينى يعيشون حاليا فى لبنان ، وتعلن أنها لن تنسحب من لبنان حتى تتم هذه المهمة بحصول كل لاجىء فلسطينى فى لبنان على هوية لبنانية تتيح له جميع حقوق المواطن اللبنانى فى العمل والإقامة ، وحتى لا يعودون يطالبون بالعودة إلى ديارهم فى فلسطين ! ويعضّ الكتائبيون على أناملهم غيظا من هذا الهدف الإسرائيلى . لأن الحكومات السابقة التى كان لهم نفوذ عليها ، كانت قد أعطت الهوية اللبنانية للفلسطينيين المسيحيين فقط ، وهم لا يزيد عددهم على عشرة آلاف ، بينما تخشى أن يؤدى إعطاء الهوية لبقية اللاجئين الفلسطينيين إلى مزيد من الاختلال فى التوازن السكانى بين الموارنة والطوائف اللبنانية الأخرى !

ولكن يبقى أن عدالة القضية التى يدافع عنها الدروز ، وهى علمانية الدولة اللبنانية وديموقراطيتها ، لا يمكن للدولة الصهيونية أن ترضى عنها مهما يكن من تعقيد موقفها الذى منعها من التدخل ضدهم فى حرب الجبل ، فقد جذبت تلك القضية إليهم مؤازرة

كثير من القوى الوطنية اللبنانية ، وخاصة أن الحزب التقدمى الاشتراكى الذى يتزعمه وليد جنبلاط ، لا يزال يحمل سمات النزعة القومية التى سيطرت عليه أيام زعيمه الراحل ومؤسسه كمال جنبلاط ، وهو من كان يعتبر نفسه واحدا من دعاة الوحدة العربية والاشتراكية ، ويعتز كثيرا هو وأنصاره ، بصداقته للزعيم المصرى الراحل جمال عبد الناصر ، ويرى نفسه حليفا لبنانيا له على الصعيد القومى !

لذلك كانت آخر أنباء الموقف - قبيل تحرير هذا المقال - أن الدولة الصهيونية قد وجهت إنذارا إلى مليشيا الدروز فى لبنان بإخراج الفلسطينيين من صفوفهم وإلا فسوف تقوم هى بإخراجهم باستخدام قواتها هناك ! وذلك تحرش واضح ومحاولة لإحراج الطائفة الدرزية بعد أن أوشكت قضيتها فى علمانية الدولة على الانتصار ، واضطرت الحكومة اللبنانية إلى القبول بمبدأ المصالحة الوطنية وتشكيل لجنة عليا لتحقيق تلك المصالحة بما تنطوى عليه من إعادة التوازن الطائفى فى شئون الحكم والإدارة على نحو يكفل العدالة للجميع .

ولست أشك فى أن الدولة الصهيونية سوف تبذل جهدها فى إفساد تلك المصالحة ... والعمل على إبقاء جذوة الصراع الطائفى مشتعلة فى لبنان على أية صورة من الصور ولو من أجل تغطية العملية الإجرامية التى ما تزال الصهيونية تمارسها فى الأرض المحتلة فى فلسطين ، بطرد العرب منها لإقامة المستوطنات اليهودية ، خالقة بذلك مشكلة لاجئين « غرباء » مرة أخرى ، تنشأ منها بدورها متاعب جديدة لإحدى الجارات العربية لإسرائيل !

إن الدرس الأول لحرب الجبل المريرة ، ومختلف المواقف التى انكشفت فيها ، بما فى ذلك موقف الدولة الصهيونية ، وأن ليس لها ، ولن يكون لها صديق دائم فى تلك المنطقة يمكنه أن يعتمد عليها ، يملى على جميع العرب أن يفيقوا من ترهات التناز ع الطائفى أو الإقليمى فيما بينهم ، ويعلموا أن للجميع ، على اختلاف هوياتهم عدوا واحدا عليهم أن يتصدوا له ، أولئك هم الغرباء حقا على المنطقة وعلى ربوعها جميعا ، وهم الغزاة الصهاينة المجلوبون بالدعاوى الزائفة لاغتصاب الأرض العربية والتسلط عليها والتحكم فى أقدار شعوبها .

* * *

فهرست




Bibliotheca Alexandrina
0295817